وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الدكتور يحيى فارس – المدية –

كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية

قسم : العلوم الإنسانية

شعبة : التاريخ

علاقة الدولة العثمانية بالزعامات المحلية في بلاد المغرب العربي

(تونس، ليبيا ، المغرب الأقصى)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في تاريخ الدولة العثمانية

(1453 – 1924)

إعداد الطالبتين :

- رتيبة كروم
- رفيقة حمداني

إشراف الأستاذ:

بلخوص دراجي

السنة الجامعية 2020 / 2021

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

أحمد الله عز وجل على منه و عونه على إتمام هذا البحث, أهدي عملي هذا المتواضع الى من قال فيهما الله سبحانه :

واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل " ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا ".

إلى حكمتي وعلمي ..... الى أدبي وحلمي..... الى الينبوع الذي لا يمل..... امي العزيزة.

إلى قدوتي الأولى ومعلمي... و النّبراس الذي ينير دربي..... الى من رفعت رأسي عاليا وافتخارا به اخي العزيز.

الى التي تحملت معي معاناة البحث زميلتي و اختي في الله" رفيقه حمداني" الى كل من جمعتني بهم الأقدار عبر طيات الحياة وسنين الدراسة وبالأخص قسم التاريخ

رتيبة

إهـــــــداء

أحمد الله عز وجل على منه وعونه في إتمام هذا البحث.

أهدي عملي المتواضع الى من قال فيهما الله سبحانه:

" واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا". الى من سهرت على تربيتي انا و اخوتي واكملت دراستي امي جزاها الله كل خير

الى أبي الغالي الذي ارفع رأسي افتخارا به .

إلى من شاركوني تفاصيل حياتي اخواني واخواتي حفظهم الله ورعاهم

إلى التي تحملت معي معاناه البحث زميلتي واختي في الله رتيبة.

إلى جميع الاصدقاء والزملاء والاساتذة الكرام من الابتدائية الى الجامعة

رفيقة

شكر وعرفان:

الحمد لله العلي العظيم على منه وفضله علينا ان وفقنا الله على اتمام هذا العمل حمدا كثيرا مباركا فيه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

ثم الشكر للأستاذ المشرف " بلخوص دراجي" الذي وجهنا وتابعنا في إنجاز بحثنا هذا آملين من المولى عز وجل أن يجعله في ميزان حسناته.

والشكر موصول أيضا الى كل من مد لنا يد المساعدة أيا كانت كتابا أو معلومة او إرشاد.

والله نرجو أن يتقبل من هؤلاء وأن يجزيهم عنا خير الجزاء .

رتيبة + رفيقة

قائمة المختصرات	
ط	طبعة
تر	ترجمة
(د . ط)	دون طبعة
(د . ب)	دون بلد
(د . س)	دون سنة نشر
ع	العدد
(د . ش)	دون شهر
(د . ع)	دون عدد
ج	الجزء

مقدمـــة :

تعتبر الفترة العثمانية من أهم الفترات في منطقة بلاد المغرب في مطلع القرن 16 و 17 م التي خصها المؤرخون بالدراسات المتعمقة نظرا لما شهدته من أحداث على مختلف الأصعدة السياسية و الثقافية و العلمية و غيرها ، فقد عرفت علاقات الدولة العثمانية بالزعامات المحلية في ليبيا تونس و المغرب من العلاقات التي يمكن القول عنها أنها لم تصل الى اعتبارها علاقة طيبة بل كانت علاقة الدولة العثمانية مع ليبيا تونس و المغرب علاقة مصالح ، فقد ساعدت الدولة العثمانية ليبيا تونس المغرب لطرد الاسبان من أراضيها.

أسباب اختيار الموضوع :

لقد وقع الاختيار على هذا الموضوع لعدة دوافع أهمها :

الرغبة الشخصية في معالجة الموضوع الذي لم يحظى بدراسة كافيه باعتباره لم يدرس من قبل في جامعتنا على الاقل (وهذا في حدود علمنا) ومحاوله تسليط الضوء على بعض جوانبه وازاله الغموض عنها كونه موضوع هام, ضف الى ذلك محاولة اعطاء صورة واضحة للقراء والباحثين عن هذا النوع من العلاقات .

إشكالية البحث :

ترتكز هذه الدراسة في البحث و الاجابة على سؤال رئيسي يتمثل في :

1- ماهي طبيعة العلاقة بين الدولة العثمانية و الزعامات المحلية في بلاد المغرب العربي(ليبيا ،تونس و المغرب الأقصى)

و يتفرع هذا السؤال بدوره الى عدة أسئلة ثانوية وهي كالتالي :

- كيف كانت الأوضاع العامة لبلاد المغرب قبل التواجد العثماني
- كيف كان الدخول العثماني لبلاد المغرب
- ما طبيعة العلاقة بين الدولة العثمانية والمغرب

الخطـــــة :

وقت الزمتنا الإشكالية المعالجة ما توفر من مادة علمية الى تقسيم بحثنا الى فصل تمهيدي وثلاثة مباحث وكل مبحث الى ثلاث مطالب هي :

الفصل التمهيدي:

الذي خصصناه للحديث عن الاوضاع السياسية لدول المغرب وقد تضمن هذا الفصل مجموعه من العناصر المندرجة تحت:

المطلب الأول : الاوضاع السياسية في تونس

المطلب الثاني : الاوضاع السياسية في ليبيا

المطلب الثالث : الاوضاع السياسية للمغرب الأقصى

المبحث 1: عنوانه علاقه الدولة العثمانية بليبيا:

تحدثنا في المطلب الاول ليبيا خلال الحكم العثماني واهم مراحلها. وتطرقنا في المطلب الثاني نظام الحكم العثماني في ليبيا. والمطلب الثالث مظاهر الحياة الاقتصادية والعلمية والثقافية في ليبيا خلال الحكم العثماني.

المبحث2:

الذي جاء تحت عنوان علاقة الدولة العثمانية بتونس.

تحدثنا في المطلب الاول: الدخول العثماني الى تونس, أما المطلب الثاني : العثمانيون يضمون تونس, المطلب الثالث: تونس ولاية عثمانية.

اما في **المبحث الثالث:** الذي يعنونه: علاقة الدولة العثمانية بالمغرب الاقصى,

ففي المطلب الاول تحدثنا عن العثمانيون والمغرب الاقصى, اما المطلب الثاني: التحالفات العثمانية الوطاسية.

اما المطلب الثالث: المراحل التي مرت بها العلاقة العثمانية المغربية.

الدراسات السابقة :

إن أي بحث تاريخي يعالج في مضمونه مجال الوضع السياسي و الانعكاسات المترتبة عنه وكذا علاقة الدولة العثمانية مع الزعامات المحلية خلال القرنين 16 و 17 يجعل الباحثين و الدارسين يغوصون في البحث للوصول الى الحقيقة ولو نسبيا و يكون ذلك طبعا من خلال تمحصهم في المصادر الأساسية ، و لعل دراسة طبيعة العلاقة بين الدولة العثمانية و المغرب جعل بعض الباحثين يتناولون هذا الموضوع و إن لم يكن بشكله الذي درسناه سواء مصادر أو مراجع أو رسائل جامعية ، ومن أهم ما صادفنا منها نذكر :

- أبو علي عبد الفتاح حسن : الدولة العثمانية و الوطن العربي الكبير
- شرف موسى : علاقة المغرب بالدولة العثمانية
- شوقي عطا الله الجمل : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا تونس الجزائر و المغرب)

مناهج البحث :

اعتمدنا في هذا البحث على المناهج التالية :

المنهج التاريخي والمنهج المقارن الذي حاولنا أن نعطيه صيغة تحليلية قدر ما سمح لنا به وقت انجاز المذكرة الذي كان ضيقا جدا مقارنة بطبيعة الموضوع.

صعوبات البحث :

ومن الصعوبات التي اعترضتنا في انجاز موضوعنا هذا :

1- قلة المصادر التي عالجت الفترة التي تناولها البحث مما جعلنا نعتمد أكثر على المراجع
2- طبيعة موضوع الدراسة و ضرورة البحث عن المصادر التي تعتبر قليلة في مكتبتنا

3- تشعب بعض جزئيات الموضوع في المصادر و المراجع مما جعل تتبع كل عنصر أمر صعب .

أهم المصادر و المراجع :

1- أبو علي عبد الفتاح حسن: الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير

2- الشناوي الدولة العثمانية دولة مفترى عليها .

3- عبد المنعم ابراهيم الجميعي: الدولة العثمانية والمغرب العربي.

4- رافق عبد الكريم لكتاب العرب و العثمانيون.

5- شرف موسى: علاقة المغرب بالدولة العثمانية.

6- مذكرة بعنوان : اسم العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية خلال العهد العثماني من اعداد الطالبتين حياة عامر وسمية زروقي.

7- شوقي عطا الله الجمل المغرب العربي الكبير في العصر الحديث , الطبعه1 , 1977, مكتبه الانجلو المصرين.

8- عزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها 47 , مكتبة الانجلو المصرية.....الخ.

الفصل التمهيدي: الأوضاع السياسية في دول المغرب:

المطلب الأول : الأوضاع السياسية في تونس

المطلب الثاني : الأوضاع السياسية في ليبيا

المطلب الثالث :الأوضاع السياسية في المغرب الأقصى

أ / الأوضاع السياسية في تونس :

كانت تونس الخضراء مقر الولاة العرب في المغرب كما مثلت دورا بارزا خلال حكم الأغالبة فالعبيديين فالحفصيين.

وبعد ان أدار الفلك دورته و كشر الزمن عن انيابه تنازع تونس الفوضى, وأصبح الضعف والتفكك السياسي احدى سماتها البارزة وخاصة بعد اعتلاء محمد بن الحسن الحفصي العرش في عام 899 هـ - 1493 م ، حيث خرجت مدينة القيروان والعديد من المدن من تحت سيطرته. وفي اعقاب وفاته تنازع الاسبان العثمانيون السيطرة عليها وتمكن الإسبان من الاستيلاء على بعض ثغورها [1] .

و بعد أن دخلت الجزائر في حوزة العثمانيين كان من الضروري أن تكون وجهة الأسطول العثماني تونس لتكون كقاعدة عمليات إضافية للعثمانيين وخاصة ان الامبراطور شارل الخامس ملك اسبانيا كان قد تحالف مع فرسان القديس يوحنا في مالطا وطرابلس ضد المسلمين.

و نتيجة لذلك رأى السلطان سليمان القانوني انه من أجل تأمين قواعد قواته في البحر المتوسط وترسيخ وجودها في الجزائر لا بد من السيطرة على تونس[2] وشجعه على ذلك أن أحد المطالبين بعرش الحفصيين في تونس نجح الى الأستانة طالبا المساعدة العثمانية لاستعادة عرشه . وبعد ان هيأ السلطان الامر ذلك استدعى خير الدين بربروس اليه في اسطنبول عام 940 هـ - 1553 م [3]

وعهد اليه بإعداد العدة لفتح تونس واسترجاعها من أيدي الإسبان وتحويلها الى ولاية عثمانية قبل ان يسبقه الامبراطور شارل الخامس في الاستيلاء عليها. وفي أعقاب حصول بربروس على الدعم الكامل والإمدادات اللازمة من السلطان ، توجه بالأسطول العثماني المؤلف من 80 سفينة وثمانية الاف جندي الى منطقه بنزرت في غرب تونس حيث حضي هناك استقبال طيب من الأهالي .

[1] - عبد المنعم ابراهيم الجميعي: الدولة العثمانية والمغرب العربي, موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية, دار الفكر العربي صفحه 52

[2] نفسه ص 53

[3] عبد المنعم ابراهيم الجميعي : نفس المرجع السابق ص 53

ومن بنزرت توجه الأسطول العثماني الى منطقة حلق الوادي في عام 941 هـ - 1534 م ، ودخل خير الدين بقواته إلى العاصمة التونسية التي تركها حاكمها الحسن الحفصي وفر هاربا مستنجدا بأعراب الصحراء. وفي اعقاب ذلك اعلن خير الدين نهاية حكم الحفصيين. كما أعلن تبعية تونس للدولة العثمانية ، و وجوب الطاعة له بحكم كونه ممثلا للسلطان العثماني مما قلب موازين الامور وزاد من حدة الصراع الحربي بين العثمانيين والاسبان الذين كانوا يدركون اهمية تونس العسكرية وتحكم موانئها في المواصلات البحرية في منطقه البحر المتوسط. وتوسطها بين الجزائر وطرابلس وقربها من ايطاليا و مجاورتها لجزيره مالطا . ومع كل ذلك فإن الأمر لم يستقر لخير الدين تماما، فسرعان ما واجه العديد من المشاكل من أهالي تونس الذين تمردوا عليه نتيجة للتنظيمات التي ادخلها في بلادهم ومن اجل حفظ النظام والامن وزع خير الدين قواته في كافه انحاء البلاد، وبينما كان خير الدين يوطد سلطانه في تونس لجأ الحسن الى شارل الخامس ملك اسبانيا طالبا العون ضد خير الدين والعثمانيين ، وقد استجاب شارل الخامس لمساندة الحسن الحفصي ، و كلف قواته بوضع الخطط العسكرية للاستيلاء على تونس واستعادة التحكم في المواصلات البحرية في البحر المتوسط.

ونظرا لأهمية موقع تونس عمل علج علي على تقويه حاميتها قبل مغادرته لها فترك بها جيش مكونة من خمسة آلاف رجل موزعين على عده كتائب سميت بالأوجاق يحكمها جميعا قائد باسم أوجاق باشا، كما تم تعيين القائد رمضان حاكما عاما لتونس وبعدها غادر علج علي تونس متوجها الى الجزائر في رمضان 979 هـ - 1570 م [1]

وبعد معركة ليبانتو البحرية 979 هـ - 1571 م التي هزم فيها العثمانيون ودمر اسطولهم سارعت اسبانيا للاستيلاء على تونس ونجحت في ذلك وخاصة ان حاميتها كانت قليلة العدد بالنسبة للقوات الإسبانية، كما استباح الإسبان جامع الزيتونة ونهب خزائن الكتب الموجودة به . نتيجة لذلك ارسلت الأستانة أسطولا مكون من 300 مركب مشحونة بالجند لاستعادة تونس وإحياء روح الجهاد بين أهلها.

وقد تمكن سنان باشا والقبطان علي علج من استردادها عام 1574 ميلادي وإبادة الحامية الإسبانية هناك ، وإنهاء حكم الحفصيين المتعاونين معهم وبذلك استطاعت الدولة العثمانية تحرير تونس من الاسبان واعادتها الى رحاب الكتلة الإسلامية.

[1] نفس المرجع السابق ص 55

وقبل أن يغادر سنان باشا تونس عمل على تنظيم شؤونها وكان من اهم تنظيماته توفير قاعده عسكرية تتمركز بها وترك اربعة الاف جندي انكشاري ممن كانوا برفقته لحماية هذه البلاد، كما كون فيها إدارة كانت فرقة الإنكشارية مدار قوتها وأعضائها من المجلس الذي يترأسه الباشا ممثل الدولة العثمانية يساعده ديوان استشاري مكون من كبار الضباط والمسؤولين وعلى رأس كل هؤلاء الباشا الذي كان يطلق عليه الآغا أو والباي. وبعد ان نظم سنان باشا تونس غادرها الى اسطنبول ومنذ ذلك التاريخ تتابع على حكم تونس عدد كبير من البيات كان أشهرهم عثمان باي الذي حاول النهوض بالبلاد ويوسف باي الذي نهض بالنواحي العلمية.

وظلت تونس يحكمها الولاة حكما مباشر ويتوارثها ابناؤهم أحيانا ، وخلال الربع الاخير من القرن السابع عشر و اوائل القرن الثامن عشر شهدت ولاية تونس اضطرابات ناتجة عن التنافس بين القادة على استشارا بالسلطة، و زاد من هذه الاضطرابات حرب بين ولايتي تونس والجزائر ثم التنازع على الحكم في تونس واستنجاد أفراد الأسرة المرادية بالجزائريين .

وفي وسط هذه الاضطرابات تمكن حسين بن علي احمد من الاستيلاء على الحكم في عام 1705 م و تأسيس الأسرة الحسينية التي حظيت بترحيب الاهالي وقواد الجند.

استطاع حسين بن علي أن يعيد هيبة الحكومة ويقضي على نفوذ العصبيات المسلحة وأنشأ جيشا قويا [1]

و تصرف البايات الحسينيون كمستقلين في شؤونهم عن الدولة العثمانية فعقدوا المعاهدات واعلنوا الحرب دون الحصول على موافقة السلطان واكتفى السلطان بالولاء الاسمي و بالدعاء له في المساجد خلال خطبة الجمعة وضرب السكة باسمه .

[1] نفس المرجع السابق ص 56

وفي أوائل القرن التاسع عشر بدأت الدول الأوروبية تعقد علاقات تجارية وسياسية وأخذ البايات يسيرون في طريق الاصلاح.

ونتيجة لبذخ بعض البايات وانغماسهم في الترف و محاولة ظهورهم بمظهر الحكام العصريين واجهت تونس مصاعب مالية وتراكمت الديون عليها ، وعلى سبيل المثال نذكر أنه في عصر احمد باي 1837- 1855 أنفق الكثير من الأموال في بعض المشروعات العمرانية والاصلاحات، و في عمليات البذخ والترف واقتناء التحف مما أدى في نهاية الأمر الى التوسع في الاستدانة. ووقعت تونس فريسة في ايدي الدول الأوروبية واقحام الاجانب في شؤون البلاد بحجة القيام بالإصلاحات التي أرادها الباي . واجبارها اصدار ما يسمى بعهد الامان الذي اعطت نصوصه مزايا عديده للأجانب منها حق العمل والملكية في تونس . حقيقه ان هذا العهد شمل في نصوصه مزايا عديد ولكن ضرره على التونسيين كان اكثر من نفعه.

وبعد أن قررت فرنسا الاحتفاظ بالجزائر ازداد عزمها على احتلال تونس رغبة منها في منع قيام نظام في تونس يهدد احتلالها للجزائر وقد شجعها على ذلك تأييد كل من ألمانيا وبريطانيا لها. فقد رغب المستشار الألماني بإبعاد فرنسا عن التفكير في هزيمتها في الحرب السبعينية وصرف أنظار الفرنسيين عن الأتراك وعن فكرة الانتقام لهزيمتهم بتأييد جهود فرنسا الاستعمارية خارج اوروبا [1].

أما عن إيطاليا فإنها اعترضت على تغلغل النفوذ الفرنسي في تونس وقاومته و بدأت حملة دعاية قويه ضد فرنسا وخاصة أن تونس كانت محط أنظار الايطاليين وخاصة ان هناك معاهدة بين إيطاليا والباي عقدت في عام 1868 كان من أهم بنودها صون مصالح الايطاليين في تونس والاحتفاظ بجنسيتهم هناك . يضاف الى ذلك ان المسافة بين صقلية الإيطالية وتونس لا تزيد عن 70 ميل . ولما بدا لفرنسا ضرورة الاسراع لاحتلال تونس بحجة انها امتداد طبيعي للجزائر، اتخذت من عبور القبائل التونسية لحدود الجزائر ذريعة لظم تونس اليها ، فأرسلت قواتها في ماي 1881 الى قرب العاصمة التونسية واعلنت أن غرضها هو اقرار النظام ولكنها ما كادت تصل الى العاصمة حتى اجبرت الباي على عقد معاهده باردو في 12 ماي 1881 والتي اعلن الفرنسيون في اعقابها الحماية على تونس بحجة المحافظة على الامن ورعاية حسن الجوار، والى جانب ذلك فقط كبلت فرنسا تونس بالأغلال وأصبح المقيم الفرنسي في تونس هو صاحب الكلمة العليا وتولت فرنسا تمكين تونس ورعاية مصالحها في الخارج [2] .

[1] نفس المرجع السابق ص 57 .
[2] نفس المرجع السابق ص 57

وقد شملت الحماية الفرنسية جميع المرافق في تونس، فانتشر الموظفون الفرنسيون في المراكز الحكومية بتونس. كما تحولت الكثير من الأراضي الزراعية الى إقطاعات تمنح للمستوطنين الفرنسيين و الى جانب ذلك قام الفرنسيون بتجنيد المواطنين التونسيين وإعطائهم الجنسية الفرنسية .

كما حاولوا قطع صلاتهم الثقافية بالعالم العربي وبحضارتهم الإسلامية، وذلك بتأسيس نظام تعليمي يقتلع الشبان من جذورهم الثقافية. و نتيجة لذلك بدأت الحركة الوطنية في تونس في شكل حركة اسلامية، وكانت مدرسة الزيتونة معقلا لمقاومة السياسة الفرنسية كما بقي مسجدها حارسا للتراث العربي الاسلامي بالإضافة الى أنه ظل مركزا ثقافيا ودينيا[1]

وظلت فكره تقوية الروابط مع الجامعة الإسلامية التي كان يرددها السلطان العثماني عبد الحميد ملتقى أفئدة التونسيين، ثم تبلورت الحركة الوطنية بعد ذلك حتى اضطرت فرنسا الى الاجلاء عن تونس والاعتراف باستقلالها في 17 ماي 1956.

[1] نفس المرجع السابق ص 58

ب/ الأوضاع السياسية في ليبيا:

عرفت الاوضاع السياسية حالة من التوتر في بداية عودة الأتراك بطرابلس الغرب لأن الأهالي رفضوا العودة التركية للبلاد, وأن يكون تحت ظلهم , ولقد تولّد كره شديد وروح عدائية من قبل العرب نحوهم خاصة أمام تسلط الجنود الإنكشارية. كما أصبح لدى الأهالي قناعة تامة أن الحكام الأتراك سيكون همهم الوحيد جمع المال وبالتالي فإن وجودهم لن يغير شيء [1] .

وعلى الرغم من استمرار حاله التوتر والنفور من الاتراك الا أن اشارة البداية للحكم العثماني المباشر انطلقت بتعيين رائف باشا واليا على ليبيا بعد أن تم استدعاء نجيب باشا إلى عاصمة السلطة ، إذ أنه خلال فترة الحكم العثماني المباشر لليبيا(1835- 1911) تداول على السلطة 33 واليا كلهم من ذوي الحزم والقدرة على كسر أيادي العابثين بالنظام وتنظيم الولاية، غير ان كثرة تغير الولاة لم تتح الفرصة للقادرين منهم لتنفيذ مشاريعهم وهناك من لم تتجاوز فتره حكمهم سوى بضعة اشهر، فمعظمهم قضى مدة حكمه في اخماد الثورات التي اندلعت خلال حكم القره مانلي لأن زعماء الثوار استمروا ثائرين وبذلك فإن الأتراك لم يسطوا نفوذهم على كامل البلاد [2]

فقد ظلت مصراته تحت سيطرة عثمان آغا ولا جوث بيد غوما في حين اكد عبد الجليل سيادته على فزان [3]

غير أن الوضع لم يبقى على ما هو عليه، فبعد إخماد الثورات تم اخضاع كلا من المنطقة الشرقية من طرابلس الغرب وفزان والجبل للأتراك, اما غات فبقيت مستقلة الى أن تمت دعوه تزكية لحكم المنطقة سنة 1872 م خوفا من الاحتلال الفرنسي في حين أن الكفرة والجعبوب كانت السلطة العثمانية اسمية عليها فقط. اذ انهما كانتا بيد السنوسية ،إلا أنه ما و في سنة 1910 م وفي اطار اتفاق بين هذه الأخيرة والباب العالي اعترف بالسلطة العثمانية في هذا القطر [4]

---

[1] ولاية طرابلس الغرب في عهد الوالي احمد راسم باشا 1881-1896 مقدمه لنيل شهاده الماستر اكاديمي في التاريخ, تخصص تاريخ العالم المعاصر صفحه 30.

[2] - شرقي عطا الله الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث, ليبيا تونس الجزائر المغرب صفحه 143.

[3] نيقولا زيادة : محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار الايطالي إلى الاستقلال ، المطبعة الكمالية ، 1958 ،ص 52.

[4] فرنشيسكو كورو : ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني ترجمه خليفه محمد التليس , طبعه1, المنشاة العامة للنشر والتوزيع طرابلس , 1971, صفحه 14.

وبهذا يكون الأتراك سيطروا سيطرة كاملة على المراكز الرئيسية بطرابلس الغرب على الاقل ،واتجهوا نحو تنظيم وتسيير البلاد ،حيث أقام بهذا النظام الاداري السائد في الإمبراطورية لتصبح بذلك إيالة إلى مقاطعة كبرى او اقليم يحكمه والي برتبة باشا وتقسيمها الى سنجقية ثم تحويلها وتقسيمها الى ولاية ومنح الولاة مسؤوليات واسعة وإدخال شؤون القضاء واصلاحات أخرى وذلك خلال سنة 1865 م .

و في إطار سياسة الاصلاحات قام الاتراك بإنشاء المحاكم المدنية والجزائية وهي محكمة الصلح والمحكمة الإبتدائية و محكمة الإستئناف ومحكمة التمييز ،بالإضافة الى المحاكم الشرعية للفصل في القضايا والمنازعات الشرعية كما فتحت أبواب المناصب الإدارية والحكومية الهامة [1]

وقد سعت السلطة العثمانية بكل هذا من اجل الخروج من حالة الفوضى التي عاشتها طرابلس الغرب مع بداية الحكم المباشر ولذلك قامت بإدخال هذه التنظيمات التي تجلب الراحة والهناء للوطن وأهله [2] .

[1] - راسم رشدي: طرابلس الغرب في الماضي والحاضر. طبعه 1, دار النيل للطباعة, القاهره1953 ص 105 ، 106

[2] محمد ابراهيم لطفي المصري: تاريخ حرب طرابلس طبعه 1, مطبعه مؤسسه الامير فاروق, القاهرة 1946, ص 20.

ج / الأوضاع السياسية في المغرب الأقصى:

شهد المغرب الاقصى أوائل القرن 16 م احتلال البرتغال للعديد من المناطق نظرا للضعف الذي آل اليه الوطاسيون في عدم قدرتهم على رد العدوان، الامر الذي فتح المجال أمام الاشراف السعديين للبروز كقوة في المغرب الأقصى.

ويمكن تقسيم فتره حكم السعديين الى ثلاثة مراحل:

المرحلة الاولى:

تتمثل في قيام الدولة السعدية وذلك بتوطيد حكمها في البلاد وتمكنها من استرجاع معظم المدن المغربية.

المرحلة الثانية:

فتعد بمثابة مرحلة القوة بالنسبة للدولة وذلك نظرا لما حققه السعديون سنة 1578 م في معركة وادي المخازن من انتصار على البرتغاليين وفي مقتل ملكهم سيباستيان على اثرها.

وفي هذا الوقت كانت الدولة العثمانية تسعى الى ضم المغرب الأقصى إليها غير أن هذا الأمر لم يحدث لأن السعديين كانوا يرون أنفسهم أحق من العثمانيين في حكم المغرب, وازدادت قوة الدولة اكثر في عهد المنصور الذهبي. لكن ما لبث ان دخلت الدولة السعدية في مرحله الضعف بعد موت المنصور(1012 - 1603) الذي مهد لظهور الاشراف العلويين ليستولوا على الحكم في المغرب على اثر مبايعه الشريف عام 1043 هجري - 1633 ميلادي وعرف عهد هذه الأسرة دخولهم في صراع مع الدّلائين حول الحدود الى غاية القضاء عليهم عام 1668 م .[1]

[1] بن عامر حياه- سميه زروقي: العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية خلال العهد العثماني, مذكره مقدمه لنيل شهاده الماستر اكاديمي في التاريخ, تخصص تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر السنه الجامعية 1437- 1438 هـ . 2016- 2017 م ،ص 12.

المبحث الأول :علاقة الدولة العثمانية بليبيا.

المطلب الأول : ليبيا خلال الحكم العثماني و أهم مراحلها

المطلب الثاني : نظام الحكم العثماني في ليبيا

المطلب الثالث : مظاهر الحياة الاقتصادية و العلمية و الثقافية في ليبيا خلال الحكم العثماني .

المطلب الأول :

ليبيا (طرابلس الغرب) خلال الحكم العثماني :

بعد أن وقعت طرابلس الغرب في يد الامبراطور الإسباني شارل الخامس في عام 1510 م ترك إدارتها لفرسان القديس يوحنا الذي كانوا يتخذون من مالطا مقرا لهم[1].

وقد أحل فرسان القديس يوحنا بهذه المدينة الدمار واتبعوا مع أهلها سياسة التعصب الديني حيث أقاموا حكومة مسيحية دينية استهدفت تغيير الوجه الاسلامي لهذا الاقليم العربي الاسلامي ، كما أنهم جعلوا من ميناء طرابلس صليبيا ينطلقون منه لضرب السفن الاسلامية التي تجوب البحر الأبيض المتوسط ، وقاعدة يشنون منها غاراتهم ضد الأقطار الاسلامية المطلة على البحر المتوسط ، و لكنهم اصطدموا بالشعور الديني الاسلامي المتأجج في نفوس الأهالي . فقد عمد أهالي طرابلس الى مقاومة هذه الهجمة الشرسة ضد الاسلام مستعينين في ذلك بالمجاهدين المسلمين الذين كانت سفنهم تجوب البحر المتوسط أمثال عروج و خير الدين .ولكن إمكاناتهم الحربية و جهودهم البشرية حالت دون ذلك ، خاصة بعد أن قام فرسان القديس يوحنا بتحصين المدينة و تدعيم قلعتها ، هذا بالإضافة الى تحالف " الحصن الحفصي " حاكم تونس معهم ومساندتهم مما دفعهم الى الاستنجاد بالسلطة العثمانية كما فعلت الجزائر من قبل فأرسلوا وفدا الى السلطان العثماني " سليمان القانوني" يلتمسون منه المساعدة لتخليص بلادهم من الحكم الصليبي و يعلنون ولاءهم له ، و الانضواء تحت السيادة العثمانية .

[1] عبد المنعم ابراهيم الجميعي : الدولة العثمانية والمغرب العربي، جامعة القاهرة ، فرع الفيوح ،موسوعة الثقافة التاريخية و الأثرية و الحضارية ، دار الفكر العربي ص 28

وقد وافق السلطان على طلبهم حيث رأى ان استيلاء على طرابلس الغرب يمثل إكمال حلقة النفوذ العثماني على اقطار المغرب العربي كما ان فيه انقاذ لأهل هذه البلاد المسلمين من السيطرة التي كان يرغب الاسبان بهم.

نتيجة لذلك أرسل السلطان حمله الى طرابلس الغرب بقياده " سنان باشا " قائد الأسطول التركي في 13 شعبان 958 ه/ 16 اغسطس 1551 م لفتحها وطرد فرسان القديس يوحنا منها وقد تكونت هذه الحملة من مائة و 20 سفينه يساندها 50 اخرى و سته الاف جندي و 40 مدفعه وقد قام ستان باشا بمحاصره المدينة وقصف قلعتها حتى اضطرت الى الاستسلام وفتح ابوابها للأتراك واجبار فرسان القديس يوحنا على مغادرتها واللجوء الى مالطا.

ومنذ ذلك الوقت أصبحت طرابلس ولاية عثمانية وقاعده للأسطول العثماني في البحر المتوسط ومرسى للعثمانيين يربط البحر المتوسط بطرق القوافل المتجهة الى الصحراء و إلى إفريقيا السوداء جنوبا بالإضافة الى جعلها ملجا للسفن القادمة من الغرب والمحملة بالحجاج وهم في طريقهم إلى الأماكن المقدسة [1].

ويقسم المؤرخون الحكم العثماني في ليبيا الى ثلاث أقسام :

1- العصر العثماني الاول و الذي استمر فيه الحكم العثماني المباشر لهذه البلاد وهذه الفترة تنحصر ما بين عامي (1771/1551) م

2- حكم الأسرة القره مانلية 1835/1711م

3- العصر العثماني الثاني 1911/1835 م

و فيما يلي نعرض لذلك :

[1] عبد المنعم ابراهيم الجميعي : الدولة العثمانية والمغرب العربي، نفس المرجع السابق ص 29

أولا :

العصر العثماني الأول:

بعد فتح العثمانيين لطرابلس قام "سنان باشا" بتنظيم شؤونها فوضع على قلعتها حامية كبيرة من الإنكشارية وقام بإصلاح شؤون ادارتها ثم اتجه بعد ذلك الى اسطنبول حيث صدر سلطان بتعيين مراد آغا فكان بذلك أول الولاة العثمانيين هناك[1].

وقد واجه مراد آغا في مستهل عهده مشاكل عديده كان أبرزها العمل على إعادة تعمير المدينة وترميم القلعة وتنشيط العامة في البلاد بعد ما تعرضت له من أضرار فادحة خلال العهد الإسباني وعهد فرسان القديس يوحنا [2]

وقد عمل مراد آغا على إعادة الاستقرار الى طرابلس، فدعى سكانها الذين هجروها خلال حكم فرسان القديس يوحنا للعودة اليها و شجعهم على العمل في استثمار الارض الزراعية وانشاء البساتين كما شجعهم على العمل في الصناعة أدى إلى عودة الحياة الى مرافق المدينة كما نجح في زيادة رقعتها بضم بعض المناطق الجنوبية منها.

وقد اهتم مراد آغا بالناحية الدفاعية للمدينة مما أفشل الخطط الصليبية لاستفادتها [3]

واستمر" مراد آغا" في حكم طرابلس حتى عام 1556 حيث أدركته الشيخوخة وأخذ منه العجز كلما أخذها تنسحب إلى" تاجوراء " و أنشأ مسجده المشهور بها ويقال انه استعان في بنائه بالأسرى الذين كانوا لديه ثم احسن اليهم واطلق صراحهم بعد اتمام المسجد الذي اقامه على 48 عمودا وجعله على شكل حصن يعد هذا المسجد من اهم المعالم الأثرية الإسلامية القائمة في ليبيا [4].

---

[1] عبد المنعم ابراهيم الجميعي ، نفس المرجع السابق ص29

[2] نفسه ص 29

[3] نفسه ص 29

[4] نفس المرجع السابق ص 30

وفي أعقاب وفاة "مراد اغا " صدر أمر سلطاني بتعيين "درغوث باشا" واليا على طرابلس الغرب في عام 962هـ /1556م وقد كان أكثر اهتماما بالنواحي المعمارية في طرابلس التي جعل منها عاصمة في الشمال الافريقي والقاعدة الكبرى لعملياته البحرية الموجهة الى المنطقتين الوسطى والغربية من البحر المتوسط، وقد عظمت قوة طرابلس بعد أن اتخذ منها " درغوث" قاعده لعمله الموجه الى مهاجمة الدول الصليبية ورد الأخطار عن ديار الاسلام واستخلاص المناطق الواقعة تحت السيطرة الصليبية [1]

وقد نجح " درغوث" في القضاء على ما تبقى من فلول فرسان القديس يوحنا في طرابلس ومد النفوذ العثماني الى معظم السواحل الليبية ، ونتيجة لذلك شهدت طرابلس انتعاشا بعودة السيادة الإسلامية اليها فقد عاد اليها سكانها الذين كانوا قد هجروها ونزحوا منها الى الضواحي في اثناء الاحتلال الاسباني و فرسان القديس يوحنا. وعادت إليها الحياة نتيجة ازدهار الحركات العسكرية بها وانتقال بعض الجنود المشارقة إليها ضمن القوات العثمانية . وقد حرص العثمانيون على ان يجعلوا منها قاعدة بارزة لأسطولهم، وانصبت فيها الغنائم والسبايا والأسرى وعادت من جديد الى الأنصار بالمدن الإسلامية. وقد انصرف اهتمام درغوث في تقويه وسائل الدفاع عن المدينة فعمل على تدعيم أبراجها ، فأقام " برج التراب " على الجانب الشمال الغربي من صور المدينة الأصلي كما أنشأ مسجده المعروف في عام 1554 ميلادي والذي لا يزال قائما حتى الآن، و بنى لنفسه قصرا كبيرا كما انشأ دار للبارود لا تزال آثارها قائمة حتى الآن [2]

[1] نفسه : الصفحة نفسها .

[2] عبد المنعم ابراهيم الجميعي ، نفس المرجع السابق ص30

وعلى الرغم من الظروف الحربية التي واجهت درغوث باشا فإنه استطاعت تطوير مدينه طرابلس وتجهيزها مستعينا في ذلك بالأسرى الذين كانوا في حوزته.[1]

و نتيجة للتحصينات التي أقامها درغوث لم يعد فرسان القديس يوحنا يفكرون في الهجوم على طرابلس أو التفكير في غزوها بل اتجه فكرهم الى تشجيع الاعمال التخريبية سواء بطرابلس او جربه.[2]

وبعد وفاة " درغوث باشا " تولى " يحيى باشا" الحكم في طرابلس الغرب ولكنه لم يعمر طويلا فتولى الحكم مكانه "محمد بك" الذي ثار الأهالي ضده ولم تتوقف ثورتهم إلا عندما تولى مكانه" علج علي " الذي عمل على تحصين مدينه طرابلس وتقويه دفاعاتها، فبنى برجا بهدف أن يكون مخزنا للبارود لذلك سمي بدار البارود خلال ذلك نشط علج علي في جهاد الإسبان ورصد تحركاتهم ونقل أخبارهم للسلطان العثماني[3].

و خلال تلك الفترة ورغبة من الدولة العثمانية في الحفاظ على وجه هذا الاقليم عربيا واسلاميا استمر الباب العالي في إرسال فيالق الانكشارية لتعزيز الحامية العثمانية لمنع أي هجوم قد يقع عليه من الجانب الاسباني او فرسان القديس يوحنا كم اهتمت الدولة العثمانية بتحصين سواحل طرابلس ونظرا لاستمرار فيالق الانكشارية في هذا الاقليم فقد تزوجوا من النساء العربيات وامتلكوا الاراضي الزراعية واشجار النخيل وكان حصيلة هذه الزيجات نشاه طبقة عرفت باسم " القولوغلية "[4].

وقد تعاقب على أمر البلاد في هذه المرحلة ولاة كانوا اقل شأنا من الولاة العظام الذين سبقوهم الى الحكم . كما واجه الحكام المتعاقبون سلسله من الاضطرابات والثورات المستمرة التي كان يثيرها الاهالي الذين كانوا يرفضون دفع الضرائب المفروضة عليهم واستمرت الامور على هذا المنوال حتى وصل " احمد الفره مانلي " احد رجال الإنكشارية الى أريكة الحكم [5].

[1] نفسه : الصفحة نفسها .
[2] نفسه : الصفحة نفسها .
[3] عبد المنعم ابراهيم الجميعي ، نفس المرجع السابق ص31
[4] نفسه ص 31
[5] نفسه و الصفحة نفسها .

ثانيا :

عهد أسرة القره مانلي 1123-1251هـ /1711-1835م

أسس هذه الأسرة أحمد القره مانلي وهو سليل أسره تركية تنتمي الى بلدة "قره مانلي " الواقعة جنوب هضبه الأناضول بأسيا الصغرى، و كان يمتلك شخصية قوية طموحة واسعة الحيلة ساعدته على أن يتغلب على كثير من المصاعب التي تعرض لها فقد وقف موقف المتفرج من الخلافات التي كانت قائمة بين الباشا والديوان وجند الإنكشارية و القولوغلية ، واظهر عدم انحيازه لأي فريق حتى فاز برضى الجميع وتمكن من نيل رضا العديد من الجند الإنكشارية وأعضاء الديوان بل ومعظم أعيان طرابلس حتى أجمع على توليه واليا على طرابلس 1123 هجري 1711 ميلادي، بدلا من الوالي المعين من قبل السلطان الذي كان غائبا عن البلاد وقت ذلك . ومع ذلك ظلت الصعوبات تواجه احمد القره مالي في الخارج والداخل فمن الخارج أرسلت الدولة العثمانية حمله لتأديبه ولكنها فشلت في مهمتها مما جعل السلطان احمد الثالث يصدر فرمانا فيه في الحكم طرابلس ومنحه لقب الباشاوية كما جعل حكمه وراثيا في اسرته . أما في الداخل فقد تمكن من القضاء على فتنة الضباط الإنكشارية الطامعين في الحكم والراغبين في إبقاء مقاليد الامور بأيديهم وذلك بعد ان تخلص منهم بمكيده دبرها لهم فدعاهم الى حفل في منزله الريفي ثم امر رجاله بذبحهم [1]

وقد اعتمد احمد باشا على العنصر الوطني في الجيش والإدارة فأوكل الاعمال الإدارية لأبناء البلاد وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية فيها. كما كان يتولى بنفسه قياده الجيش للقضاء على الاضطرابات والفتن الداخلية، وقد استطاع ان يستعيد السيطرة على اقليم فزان الذي كان بعيدا عن سيطرة السلطة الحكومية.

[1] نفس المرجع ص 32.

وبذلك تمكن من فتح طرق التجارة عبر الصحراء من افريقيا وسارت القوافل بين طرابلس والمدن الإفريقية في جنوب وغرب القاره بطريقه منتظمة. وقد اهتم احمد القره مالي بالأسطول وأعلن الجهاد ضد السفن الأجنبية التي كانت لا تدفع له الإتاوة كما قام بتدعيم سلطته وترسيخها لمواجهه كافه الاحتمالات والتهديدات التي تضمن عدم مهاجمته الشواطئ الليبية بواسطه السفن الأوروبية من الخارج واخماد كل محاوله لإثاره الفتن والتمرد ضد حكمه في الداخل. لذلك قام بإنشاء وتجديد الوسائل الدفاعية لولايته، فبدا بتجديد أسوار طرابلس وتقويتها ،وشرع في انشاء الابراج وعنى بتزويد الحصون بمدافع من عيارات كبيره ، و أرسل الأموال و الهدايا إلى عاصمة الخلافة لشراء الأنواع الجديدة من الأسلحة[1].

وقد اتسمت علاقات احمد القره مالي مع الدول الأوروبية بالعداء بسبب مواجهته للسفن الأوروبية في عرض البحر المتوسط وفرض اتاوات عليها ، وكانت معظم الدول الأوروبية تخضع لشروطه ضمانا لسلامة سفنها .وكانت انجلترا وهولندا من اوائل الدول الأوروبية التي سارعت الى دفع الإتاوة حتى تأمن على سفنها العاملة في البحر مما ادى الى حصوله على الاموال الكبيرة والغنائم. وفي عهده هاجم الفرنسيون طرابلس ب 13 قطعه بحريه ردا على الاهانات التي الحقها البحارة الطرابلسيون بالبحارة الفرنسيين و رغبة في اطلاق سراح اسراهم، و لكن الباشا لم يرضخ لمطالبهم رغم القصف الشديد الذي تعرضت له طرابلس من مدافع الاسطول الفرنسي[2].

وبالنسبة للنواحي العمرانية فقد استطاعت شخصيه احمد القره ملي أن تحفر بصماتها على الحركة العمرانية و تتجلى اثارها الباقية في المسجد الجميل الذي يحمل اسمه والذي بدا في بنائه عام 1731 ميلادي و انتهى منه عام 1737 م وألحق به مقبرة ومدرسة وفي البيوت والمخازن التي بناها في القلعة هذا الى جانب امداده لمدينه طرابلس بالماء لنفع أهلها وقيامه ببناء " فسقية " لسقي أهل السفن على البحر[3].

والحق أن أحمد باشا كان من الولاة القلائل الذين خلفوا طابعهم المعماري على مدينة طرابلس [4].

[1] عبد المنعم ابراهيم الجميعي ، نفس المرجع السابق ص32
[2] نفسه ص 33.
[3] نفس المرجع السابق ص 33
[4] نفسه ص 34

ونظرا لبروز دور الأسرة القره مانلية عقدت العديد من الدول الأوروبية والولايات المتحدة معاهدات معها حتى يمتنع عن التعرض لسفنهم في نظير دفع الاتاوات الباهظة والهدايا الثمينة لهم مما اكد استقلاليتهم الواضحة عن العثمانيين واثبت ان العلاقة معهم لا تزيد عن علاقه اسميه تتسم بالولاء للسلطان العثماني وترتبط بالصلات الروحية مع الدولة العثمانية. واستمر احمد باشا في حكم ولاية طرابلس مدة 34 عاما استطاع خلالها تثبيت حكم الأسرة القره مالية في ليبيا وتأكيد وحده هذه البلاد. وقد خلف حمد القره مانلي في الحكم ابنه محمد باشا 1158 هـ / 1745 م فقط اجمع الناس عليه لما يتمتع به من سمعة طيبة يضاف الى ذلك انه ورث حكم البلاد الليبية بعد ان استقر تسارعت هذه الدول الى عقد المعاهدات معها ودفع الاتاوات له وكانت هذه المعاهدات تتم دون أخذ رأي الأستانة [1].

ومع ذلك فلم تخلو فترة محمد باشا من فتن وثورات كان من نتيجتها اضطراب أمور البلاد وتعرض حياه الناس وأرزاقهم في للخطر، و انتشرت اعمال اللصوصية والسلب والنصب لدرجة ان ضج الناس و استصرخوا الباب العالي، وزاد الطين بلة انقسام الأسرة القره مالية عن نفسها مثل فتنة احمد بن حسن صهر الباشا و إخوته و ومؤامرة الالبان والارناؤوط لخلع الباشا .وعلى الرغم من نجاح الباشا في اخماد هذه الثورات فقد اعتلت صحته وانتهى الامر بوفاته في 24 يوليو 1754 ميلادي وله من العمر 45 سنه [2].

أما الحاكم الثالث من افراد الأسرة القره مالية فكان علي باشا الذي تولى اريكة الحكم وعمره 23 سنة، وكان لحداثة سنه اكبر الأثر في مشاركة قاده الإنكشارية له في الحكم على ان أهم الأحداث التي عصفت بحكمه تمثلت في المجاعة وانتشار الطاعون بين الاهالي وعجز الحكومة عن دفع مرتبات الجند والأساليب التعسفية التي لجأ اليها رجال الباشا خلال جمع الاموال من القبائل هذا بالإضافة الى الاحداث التي ارتبطت بالشقاق العائلي بين افراد الأسرة والخلاف بين حسن القره مانلي وأخيه يوسف الذي انتهى بمقتل الأول واستعانة بعض افراد الأسرة بباشاوات الجزائر وتونس ثم طرد الأسرة من الحكم وما صاحب ذلك من صراع من أجل عودتها اليه كل ذلك كان له أثره على الحياه العامة في البلاد.

[1] نفسه ص 34
[2] نفس المرجع السابق ص 35

وانتهى الامر بصدور قرمان سلطاني بتولي "يوسف بك" أمور الولاية 1795 بدلا من أخيه احمد الثاني الذي كان أحق منه بالولاية. و لتوضيح الوضع العام الذي كانت عليه ليبيا خلال هذه الفترة والأثر الذي خلفته الأحداث السابقة على اوضاعها الاقتصادية والبشرية والعمرانية فإن المؤرخين يتفقون على أن مدينة طرابلس قد كانت في أسوء حال غداة إستيلاء يوسف باشا القره مانلي على السلطة . وكان عليه ان يواجه كثيرا من المتاعب في سبيل تأكيد حكمه وتوفير المال اللازم لمواجهه التزامات العامة ، ومهما كان الرأي حول الطرق التي سلكها هذا الرجل الى الوصول الى الحكم إلا أن هناك اتفاق على ان البلاد قد نعمت بشيء من الاستقرار والانفتاح على التطور الحضاري في عهده مما كان له أثر على الأوضاع الاقتصادية والعمرانية بالبلاد [1].

وقد اهتم يوسف باشا بتشجيع حركه الملاحة وإعادة تنظيم البحرية التي كانت تشكل المورد الرئيسي للبلاد كما اهتم بمتابعه الأحداث في البحر المتوسط والصراع القائم بين انجلترا وفرنسا و قام بحركة تشجيع القرصنة التي كانت تدر على خزانة المال الذي يمكنه من تثبيت حكمه. وخلال ذلك كانت علاقه يوسف باشا بفرنسا ودية مما يفسر لنا مساندته للحملة الفرنسية على مصر ،وترتيب أمر نقل الأسلحة والذخائر اليها من فرنسا بطريق ليبيا بعد تدمير الاسطول الفرنسي في موقعة " ابي فير البحرية " مما أدى الى إستيلاء انجلترا و الدولة العثمانية ايضا من موقف يوسف باشا . ففي الوقت الذي كان يريد فيه السلطان العثماني اخراج الفرنسيين من مصر نجد يوسف باشا يساعد الفرنسيين على البقاء في مصر لاستيلاء الدولة العثمانية من ذلك الموقف الذي عدل الباشا عن موقفه وحاول استرضاء السلطان مع الحرص على بقاء علاقاته الطيبة مع فرنسا .أما عن علاقه يوسف باشا بالولايات المتحدة فلم تكن طيبة نتيجة لتعرض السفن الأمريكية العاملة في البحر المتوسط لاعتراض السفن الليبية واجبارها على دفع الإتاوات، ونتيجة لذلك حاولت الولايات المتحدة معاقبه الباشا عن طريق حصار ميناء طرابلس وضربه بالقنابل ، ولكن ما حدث هو أن جنحت سفينة أمريكية تدعى " فيلاديلفيا " على الشاطئ الليبي في 31 اكتوبر 1803 م فأسرها يوسف باشا بما عليها من بحاره ورفضوا اطلاق سراحهم الا اذا تعهدت الولايات المتحدة بدفع الإتاوات التي تفرض على سفنها [2].

[1] نفس المرجع السابق ص 35 .
[2] نفس المرجع السابق ص 35 .

و نتيجة لقرارات مؤتمري فيينا 1815 و اكس لاشابيل 1819 بتجريم عملية القرصنة البحرية وتحريمها، توقفت الدول الأوروبية عن دفع الإتاوات مما أدى الى نضوب خزانة يوسف باشا مما دفعه الى الاقتراض من الاجانب وفرض الضرائب على الاهالي واتباع اسلوب الشده والبطش ضد معارضيه وانتهى الامر به بتخليه عن الحكم لإبنه علي في ربيع الآخر وقد بذل علي الفره مانلي جهودا لإعادة الأمن الامصار والنظام الى البلاد وقام بإلغاء الضرائب التي فرضها والده [1].

ومع ذلك فقد استمرت الثورات نتيجة لسوء الاحوال الاقتصادية وانتشار الفتن وعدم انتظام الامور مما ادى في النهاية الى القضاء على حكم الأسرة القره ماليه في ليبيا تماما في محرم عام 1251هـ الموافق لـ 26 مايو 1835 م. وقيام الدولة العثمانية بوضع حد لهذه الاحوال المضطربة فهيئت لذلك حمله كبيره مكونه من 32 سفينة بقيادة مصطفى نجيب باشا وصلت الى طرابلس حيث قابلها الأهالي بكل مظاهر الحماس ، وقد تمكنت هذه الحملة من الاستيلاء على كل القلاع والحصون والمواقع الاستراتيجية في طرابلس وفرض الحكم العثماني المباشر على الاقليم حيث قرأ نجيب باشا أمام أعضاء الديوان القرمان السلطاني بعزل علي باشا و بأنه يجب ان يذهب هو وأسرته و من يريد أن يسحبه معه الى الإسنان ثم استقبل قناصل الدول المعتمدين بالولاية وابلغهم بذلك. وبذلك اعلن الباي العالي نهاية الأسرة القره مانلية [2] .

وهكذا حكمت الأسرة القره مانلية ولاية طرابلس حكما وراثيا لم تستطيع خلاله تنمية أمور هذه البلاد والمحافظة على شؤونها مما أدى الى انتشار الفوضى والثورات والحروب الأهلية والمجاعات حتى ضاق الاهالي ذرعا بحكم هذه الأسرة وتمنوا زوالها.

ثالثا عهد الولاه العثمانيين:

بعد انتهاء حكم الأسرة القره مانلية (العهد العثماني الثاني) تولى شؤون ليبيا في الفترة ما بين 1835 و 1911 و هي الفترة التي يطلق عليها العصر العثماني الثاني 33 واليا انصرف الولاة المتعاقبون خلال السنوات الأولى من هذه الفترة الى إعادة السيطرة العثمانية المباشرة على البلاد وتدعيم سلطة الحكومة في مدينة طرابلس والمناطق الداخلية هذا بالإضافة الى تعقب شعبة الأسرة القره ماليه المعزولة [3] .

وقد واجهت الحكومة العثمانية خلال هذه الفترة صعوبات جمة تمثلت في الموقف المعادي من زعماء الداخل مما تتطلب منها حشد قواتها للقضاء على عصيانهم وخاصه بعد خروج بعض المناطق على سلطة حاكم طرابلس . فقد اهتم "نجيب باشا" أول والي عثماني بعد انتهاء الأسرة القره مانلية بتصفية الموالين لحكم هذه الأسرة، او اعلان طاعتهم للحكم

[1] نفسه ص 36

[2] نفسه ص 37 .

[3] نفس المرجع السابق ص 37

الجديد . ومع ان " غومة المحمودي" أحد الزعماء الدواخل قد بادر بإعلان طاعته للحكومة الجديدة ومساندة الموقف الموالي للحكم الجديد فان الوالد تركي لم يطمئن اليه وأودعه السجن. كما قام بحركات قمع واسعة النطاق في المناطق المجاورة لمدينه طرابلس وخاصة ضد أهالي الساحل الذين رفضوا تسديد ما عليهم من ضرائب وأظهروا رغبتهم في التمسك بالحكم الذاتي وأرغمهم على الاستسلام بعد أن أوقع فيهم القتل والتنكيل مما كان له أثره في استسلام بقيه المناطق المجاورة لطرابلس .

و قد سيطر على طرابلس خلال تلك الفترة جو عسكري صارم تمثل في سياسة القوة التي سلكتها الحكومة العثمانية [1]

و خلال تلك الفترة ازدادت الاوضاع سوء بعد أن انتشر مرض الطاعون في ليبيا وارتفع عدد ضحاياه ، مما أدى الى هجرة معظم السكان للبلاد [2]

ومع كل ذلك فقد عمل بعض حكام هذه الفترة أمثال " رائف باشا" على ترقية شؤون البلاد أما الباقون فقط كان معدل ولاية الواحد منهم أقل من سنة . فلا يكاد أحدهم يستقر في ولايته حتى يصدر فرمان بعزله وتولية غيره. لذلك كان الوالي يسعى بمجرد وصوله الى البلاد في جمع اكبر مبالغ ممكنة من الأموال لأنه يعلم أن بقاءه في منصبه لن يطول لذلك لم يهتم الولاة بأي عمل جدي في الولاية. كما صرفوا وقتهم في إخماد الثورات التي اتسع نطاقها. فقد تزعم عثمان اغا الثورة في مصراتة ، وأكد "عبد الجليل سيف النصر" سيطرته على فزان وقاد "غومة المحمودي" الثورة ضد الحكومة في بنزرت في الجبل الغربي . هذا الى جانب ثورات الجند بشأن عجز الإدارة عن دفع مرتباتهم [3]

وقد نجحت هذه الثورات في إجهاض محاولات الحكومة إعادة الاستقرار الى البلاد وتعرض البلاد للمجاعات بسبب قله الأمطار وانتشار الجفاف وتوقف الحصول على الاتاوات من السفن الأوروبية [4]

[1] نفس المرجع السابق ص 38 .
[2] نفسه ص 38
[3] نفسه ص 39
[4] نفسه ص 39

ومع كل هذه المشاكل والصعوبات فإن بريق الأمل في الإصلاح لم ينقطع ، فقد قام الولاة بعدد من الاعمال العمرانية والتنظيمات الإدارية والانشاءات العسكرية وضع في سجل تاريخهم. فلما تولى على عسكر باشا 1838 هجري 1842 شؤون ليبيا تم ترميم المساجد و بناء دار جديدة للحكومة . وعندما تولى محمد أمين باشا الحكم 1842- 1847 اتبع سياسة التسامح مع خصومه ، فأطلق سراح المعتقلين وألزم الناس الطاعة والإذعان وقد هيأت مده حكمه الطويل الفرصة لإجراء بعض التنظيمات الإدارية التي شملت القضاء والإدارة والشؤون المالية، فتم تنظيم الأقسام الإدارية في الولاية . وأنشأت المجالس المحلية و وضعت السجلات المتنوعة وأعيد تنظيم الضرائب من حيث فرضها وجمعها. ولعل من أبرز أعماله المتنوعة إنشاء المستشفى العسكري بطرابلس[1].

وفي ولاية " أحمد عزّت باشا " 1848 التي تميزت بالهدوء في بدايتها ثم عمل إحصاء للسكان ، كما تم زيادة عدد أفراد الحامية . وقد صرف هذا الوالي جهده الى تحقيق التقارب مع تونس سعيا للوقوف في وجه السياسة الفرنسية التي كانت ترمي الى توطيد أطماعها في الشمال الافريقي.

وقد تميزت فتره "عزت باشا" بمعارضة التغلغل الأوروبي والوقوف في وجه الأطماع الأجنبية [2]

وفي ولاية " محمود نديم باشا " 1860 والتي بلغت سبع سنوات شهدت البلاد فترة من الهدوء والأمن والاستقرار وحسن الإدارة. فقده اهتم هذا الوالي بتطوير الأوضاع العامة في البلاد وتطوير مزروعاتها ومصنوعاتها كما قام بعمل تنظيم إداري جديد لليبيا فأنشأ المحاكم لضمان العدل والمساواة بين الأهالي . وفي عهده أنشأت أول مطبعة في طرابلس وصدرت أول جريدة بمدينة طرابلس باسم طرابلس الغرب.

وكانت تصدر بالتركية والعربية ، وإلى جانب ذلك فقد نظمت إدارة البريد توصيل طرابلس ببعض المناطق الليبية عن طريق التلغراف وتم بناء الاسواق ودور التخزين ، وفي عهده تم فتح بوابة جديده لميناء طرابلس من الناحية الغربية لعمران تلك الجهة وتسهيلا لسيل الاتصال بين السكان.

[1] نفس المرجع السابق ص 39
[2] نفسه ص 39

المدنية والقرى المجاورة كما اهتم الوالي أيضا بمحاربة بعض التقاليد السيئة فأبطل ما كان يجري في ليلة عاشوراء من قيام بعض الرّعاع من العامة بحمل شبه رأس جمل يدور في أرقة وحواري البلاد [1]

وما من شك في أن طرابلس نعمت في عهد هذا الوالي بالكثير من الهدوء والاطمئنان فانتعشت فيها الحالة التجارية والاقتصادية بفضل ما أبداه من رغبة في تطويرها والنهوض بها [2] .

وفي عهد الفريق علي رضا 1864 م الذي جمع في شخصه بين قيادة القوات العسكرية ومنصب الوالي ثم تطوير ولاية طرابلس وتحسين أحوالها وتنفيذ بعض المشاريع الهامه مثل تسويه الطرق والمعابر في داخل المدن وخارجها وتنظيم شؤون البريد ومد أسلاك التلغراف برّا من طرابلس الى الخمس ثم إلى الحدود التونسية وتشجيع حفر الآبار الارتوازية وربط الأودية ومدها بالتفرع ، وتأسيس سوق العزيزية و الحديقة العمومية وانشاء الساعة التي لا تزال قائمة حتى الان بميدان الساعة بطرابلس والتي تعد من المعالم الأثرية الباقية التي توضح قدرة هذا الوالي على تجميل هذه المدينة وتحسين أحوالها لدرجة انه حظي بتعاطف وإعجاب الأهالي.

وفي ولاية أحمد راسم شهدت طرابلس اهتماما واضحا وحركة واسعة من النمو والتطوير فازداد النمو في مبانيها وتم تبليط شوارعها . كما قام بحفر بئر للمياه لتسهيل حصول الأهالي على الماء.

الى جانب ذلك أنشأ أحمد راسم مستشفى للغرباء في عام 1883م ، كما تم في عهده إنشاء الرصيف الذي عرف باسم رصيف سوق الثلاثاء بهدف حمايه هذه المنطقة وأسواقها ومتاجرها من هيجان البحر [3]

[1] نفس المرجع السابق ص 40
[2] نفسه ص 40
[3] نفسه ص41

لقد كان الأثر العمراني الذي خلّفه أحمد راسم باشا على طرابلس واضحا ولا شك في أن أعماله العمرانية واهتمامه بمدينة طرابلس وتطويرها وتجميلها تضعه ضمن الولاة الذين تركوا أثرا في الحياة العامة بليبيا ، فقد نعمت البلاد في عهده بنوع من الاستقرار وشهدت تطورا واضحا في كافة مرافقها وازدهرت بها الحياة الاقتصادية والتجارية [1]

وجاء بعد رسم باشا "نامف باشا " الذي استمر في الاهتمام بالتجهيزات العسكرية و وجد صعوبة في فرض التجنيد الاجباري .ومن الإنشاءات الهامة التي نمت في عهده تأسيس مدرسه الفنون والصنائع وتأمين موارد المياه [2]

وفي عهد الوالي "حافظ باشا " تم العمل على تنظيم الإدارة. وعلى الرغم من ذلك فقد تعاقب على حكم ليبيا مجموعة من الولاة تفاوتت مدة حكمهم طولا وقسرا ومع ذلك لم يتركوا اي أثر في الحياة العمرانية يذكر لهم [3]

ولعله من الطريف أن نذكر أنه بعد قيام الثورة في تركيا وسقوط السلطان عبد الحميد استقبل أهالي طرابلس ذلك بترحاب كبير ورأوا أن الفرصة سانحة لحصول بلادهم على نوع من الاستقلال فقاموا بإجراء انتخابات لاختيار ثمانية أعضاء يمثلون ولايتهم في مجلس المبعوثات بالإسنان ولكن خاب أملهم بسبب سياسة الاتحاديين الذين اتبعوا الاسلوب المركزي في الحكم في ليبيا موظفين غرباء لا يعرفون لغة أهل البلاد وحاولوا فرض سياسه التتريك التي كانت إحدى السمات الأساسية لحكمهم [4]

وهكذا لم يرتبط الحكم العثماني في ليبيا بسياسة واضحة ومرسومة لحكم البلاد وتنميتها والاخذ بيدها بل كان هذا الحكم في مجمله غير قادر على إدارة هذه البلاد بطريقة سليمة خاصة أن كل هم العثمانيين كان جمع الضرائب في وقت قلّت فيه الاموال في أيدي دافعيها يضاف الى ذلك أن الدولة العثمانية لم تقم بإصلاحات تذكر في هذه الولاية لتحسين المواصلات او التعليم او للقضاء على الأوبئة والاهتمام بالصحة العامة.

[1] نفس المرجع السابق ص 41
[2] نفسه ص 41
[3] نفسه ص 41
[4] نفسه ص 42

وفضلا عن ذلك فان النظام الاداري في هذه البلاد صار موزعا بين رؤساء الأسر الكبيرة والشيوخ ، وكان من هؤلاء " السّنوسيّين الذين اختصّوا بالأمور المحلية في العديد من المناطق التي قامت فيها الزوايا و خصوصا في فترة العهد العثماني الثاني .

فكان رجالات الدعوة السنوسية بمثابة همزة الوصل بين العثمانيين والاهالي فقد قبل الاهالي الزعامة السنوسية كممثله لهم وناطقة باسمهم واعترفت الحكومة العثمانية بالأمر الواقع وتقربت منه. فقد جاء أول اعتراف رسمي بالسنوسية في فرمان أصدره السلطان عبد المجيد الاول 1856 سمح فيه للسنوسيين بجمع ضريبة دينية من أتباعهم من الضرائب ،كما ثبت السلطان عبد العزيز 1861 هذه الامتيازات وسمح بأن تكون السنوسية حمى يمكن للناس أن تحتمي فيه .

وفي نفس الوقت كان حرص السلطان عبد الحميد 1876 على بقاء علاقات المودة مع السنوسيين، وفي نظير ذلك تكلفت الحركة السنوسية بمهمة جمع الضرائب من الاهالي في المناطق النائية والدعاء للسلطان العثماني على منابر المساجد يوم الجمعة على أساس ان الاسلام لم يفرق منذ ظهوره بين الدين والدولة لذلك فإنه يحق للعثمان الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية وبذلك يصبح السلطان العثماني خليفة للمسلمين ويحق له تدبير شؤون الدنيا للمسلمين الى جانب شؤون الدين [1]

و نتيجة لذلك عظم شأن السنوسيين و زاد إتباعهم بين كبار رجال الدولة العثمانية وكان من أثر ذلك ازدياد سطوة السنوسي في برقة وطرابلس لدرجة أصبحت معها السلطة الفعلية الدينية و زمنية بيد شيوخ الزوايا السنوسية ، واستمرت الامور على ذلك حتى ساورت السلطان عبد الحميد الشكوك في نوايا السنوسيين نتيجة لوشايات بعض الاوروبيين ضدهم لدرجه أصدرت معها الدولة العثمانية أمرا الى موظفيها بجمع الضرائب على ما تنتجه اراضي الزوايا.

[1] نفس المرجع السابق ص44

ولكن السنوسيين رفضوا ذلك بقوة مما جعل الحكومة العثمانية تعدل عن ذلك .وعلى أي حال فإنه نتيجة لضعف الدولة العثمانية واضطراب احوالها تطلعت ايطاليا للسيطرة على ليبيا ومهدت لذلك بتغلغل نفوذها الاقتصادي والثقافي فحصلت على امتياز بفتح فرع لبنك روما في كل من طرابلس وبرقه عام 1905 ذلك البنك الذي لم يقتصر دوره على الاعمال البنكية بل نشط في عمليات الرهن والتسليف مع الاهالي وإقراض الأموال لأصحاب الاراضي الزراعية ثم سلبها منهم، كما فتحت إيطاليا المدارس المجانية في ليبيا بقصد نشر الثقافة الإيطالية وانشات المستشفيات والملاجئ للمرضى والفقراء وانشات مكتب للبريد في بنغازي والى جانب ذلك قامت بإرسال البعثات العلمية لاكتشاف المناطق الداخلية في ليبيا ومسح اراضيها هذا في الوقت الذي لم تقم فيه الدولة العثمانية بأي عمل جدي لوقف التغلغل الايطالي في ليبيا [1]

ولكي تبرر ايطاليا اهدافها الاستعمارية في ليبيا بدأت بالتنديد بسياسة الأتراك في ليبيا وطلبتهم بضرورة إصلاح أحوال هذه البلاد والنهوض بها بعد أن تهيأت الأذهان امام سيطرة الايطاليين على ليبيا ، طلبت إيطاليا الدولة العثمانية في سبتمبر 1911 بعده مطالب لها في ليبيا هي:

1- خروج العساكر العثمانية من طرابلس وبنغازي ودرنه

2- تشكيل قوات عسكرية في هذه المناطق تحت قياده ضباط ايطاليين.

3- أن تكون ادارة الجمارك في ليبيا تحت ايدي موظفين ايطاليين.

4- أن يتم تعيين والي طرابلس بموافقه ايطاليا ورضاها.

ولم تكتف ايطاليا بذلك بل وجهت انذارا الى الدولة العثمانية تتهمها فيه بعدم النهوض بليبيا وتجاهل رغبتها فيها ومعارضه مشروعها هناك رغم مصالحها الحيوية في هذه البلاد هذا الى جانب قيامها بتحريض الأهالي على الرعايا الايطاليين.

[1] نفس المرجع السابق ص 43

بخاصة وعلى الرعايا الأجانب على اختلاف جنسياتهم بعامة . مما جعلهم يخشون على حياتهم ويشرعون في الهجرة من هذه البلاد .ونتيجة لذلك فإن الحكومة الإيطالية اضطرت حرصا على مصالحها وشرفها الى احتلال طرابلس وبنغازي احتلالا عسكريا وقد صدرت الأوامر الى السفير الايطالي في الإسنان بالحصول على رد من الحكومة العثمانية على هذا الانذار في مدته 24 ساعة والا فإن الحكومة الإيطالية مضطرة الى احتلال ليبيا [1]

وعند تحليلنا لهذا الانذار نجده يثير الدهشة والاستغراب ولا نجد سببا واحدا معقولا من الاسباب التي وردت فيه يدعو ايطاليا الى القيام بهذا العمل العدائي فهل من المنطقي ان تهدد ايطاليا باحتلال المدن الليبية لأن الدولة العثمانية لم تعمل على النهوض بهذه البلاد؟ وهل من المنطق ان تهدد ايطاليا باستلاء على ليبيا لان الدولة العثمانية لم تمنحها امتيازات اقتصاديه وتناقص حقوقها في هذه البلاد ؟ [2]

وللإجابة على ذلك نجد أن ايطاليا استغلت ضعف الدولة العثمانية وانشغالها وسوء احوالها في تحديها والافتراء عليها . كما أنها أرادت ان تحول انذار الشعب الايطالي الى الخارج حتى تبعده عن التفكير في مشاكل بلاده الداخلية [3]

وكان رد الدولة العثمانية على هذا الإنذار ضعيفا حيث حاولت التنصل من اتهامات ايطاليا واظهرت حسن نيتها اتجاه الايطاليين ومشروعاتهم الاقتصادية في طرابلس بينهما بالطرق السلمية مقابل ان تعطي ايطاليا مركزا ممتازا في ليبيا كما قامت ايطاليا الدولة العثمانية بإرسال برقيات الى الدول الأوروبية تطلب منها التوسط في الامر ولكن ايطاليا رفضت كل هذه المحاولات واعلنت الحرب على الدولة العثمانية في 29 سبتمبر 1911 وبدأت في محاصرة طرابلس مدة ثلاث أيام حتى سقطت بعد قتل غير متكافئ حدث خلاله مجزرة بشرية تمثلت في افظع أدوار الهمجية وبعدها تم للإيطاليين احتلال الموانئ والنقط الساحلية في ليبيا في اكتوبر 1911 اما في باقي المناطق فقد ظلت في ايدي القوات الوطنية التي وقفت للإيطاليين بالمرصاد [4] .

[1] نفس المرجع السابق ص 43
[2] نفسه ص 44
[3] نفسه ص 44
[4] نفس المرجع السابق ص 44

وقد واجه المجاهدون الجيش الايطالي في معارك طاحنة استبسلوا فيها ولكن الفارق في التسليح والامكانات كان له أكبر الأثر في حسم المعركة لصالح ايطاليا [1]

وبعد أن عجزت الدولة العثمانية عن مد يد العون الفعلية إلى الأهالي وفشلت قواتها في مواجهه الموقف اضطرت الى عقد معاهده "آونتي لوزات" مع ايطاليا والتي انسحبت بمقتضاها من ليبيا في 18 اكتوبر 1912 وتركتها لقمة سائغة للإيطاليين كما تركت أهلها يقاومون الجيش الايطالي بمفردهم مقاومة عنيفة لأكثر من ثلاثين سنة [2]

وبهذه المعاهدة خرجت الدولة العثمانية من ليبيا تاركة الزعامة السنوسية تقف بمفردها في مقاومه الاستعمار الايطالي مما كان له أكبر الأثر في تطور الموقف في غير صالح الليبيين. هذا عن تاريخ ليبيا في العصر العثماني وحتى سقوطها تحت براثن الاحتلال الايطالي ، ويبقى لدينا في هذا الفصل التعرف لنظام الحكم العثماني ولأحوال هذه البلاد الاقتصادية والاجتماعية في ظله [3]

[1] نفسه ص 44
[2] نفسه ص 44
[3] نفسه ص 44

المطلب الثاني : نظام الحكم العثماني في ليبيا :

كان موقع هذه الولاية من الممتلكات العثمانية وبعدها عن مقر السلطة اكبر الأثر في رغبة الحكومة العثمانية الى قصر مدة الوالي مخافة ان يستقل بالبلاد مما جعل الولاة لا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة، لذلك لم تشهد طرابلس خلال الحكم العثماني أية سياسة متكاملة يمكن ان يطلق عليها حركة عمرانية حقيقية خلال فترات الهدوء والأمن تعظمت بعض الأعمال العمرانية و لكنها كانت فرديه فقد اهتمت الدولة العثمانية بإقليم طرابلس الغرب عسكريا ولم تهتم مدنيا كما اقتصرت عناية بعض الولاة منه على بعض المدن الساحلية ولم تشمل المناطق الداخلية مما أضعف الإدارة العثمانية في الداخل و أدى 5. الى اضعاف الثقة بين الحاكم والمحكوم وتعكير صفو الحياة الهادئة في كثير من الأحيان وانحصار هيبة الوالي وكثره الفتن والثورات وخاصة في مناطق القبائل .

لقد أديرت ولاية طرابلس الغرب من قبل والي يساعده نائب يسمى" الكاهية" وخازندار " يختص بشؤون الخزينة إضافة الى الكتبة والمستشارين و قاضي الجند والموظفين الاداريين ووكيل الجباية والخراج والى جانب هؤلاء كان القضاة الذين يرسون من اسطنبول [1]

وقد قسمت ولاية طرابلس الى قسمين: الاول طرابلس ويضم المنطقة الغربية وفزان والثاني بنغازي ويضم المنطقة الشرقية. وقد مرت طرابلس بفترات قوة وبفترات ضعف ،عندما تكون سلطة الحكومة قويه تزدهر حالات الاستقرار وتتزايد الاعمال العمرانية ويتم بناء المساجد والمدارس وغيرها وعندما تكون الحكومة ضعيفة تنتشر الثورات الداخلية وتصعب السيطرة على زمام الأمور وتسخر كل الجهود لإعادة النظام و مع ذلك فقد نظر الأهالي للعثمانيين نظرة حماة الاسلام الذين دفعوا عنهم شر الهجمات الصليبية سواء من الإسبان او فرسان القديس يوحنا [2]

وبالنسبة للضرائب وطريقه جبايتها فقد تم تنظيمها وفقا للأعراف السائدة والمتفقة مع الشريعة الإسلامية فطبقت ضريبة العشر والخراج والمكوس الجمركية والضريبة الشخصية وضريبه الاملاك على العقارات والدواب [3]

و الى جانب ذلك فقد شكلت غنائم الجهاد والحروب البحرية ركنا أساسيا في اقتصاديات البلاد، فكان المجاهدون المسلمون يغيرون على السفن الصليبية ويوزعون ما يغنمونه منها بعد اقتطاع الخمس للحكومة [4]

---

[1] نفس المرجع السابق ص 46
[2] نفسه ص 46
[3] نفسه ص 46
[4] نفس المرجع السابق ص 46

المطلب الثالث :

مظاهر الحياة الاقتصادية والعلمية والثقافية في ليبيا خلال الحكم العثماني :

01/ مظاهر الحياة الاقتصادية :

أ/الزراعة:

انقسمت الفلاحة في ليبيا الى قسمين: قسم يشمل أصحاب البساتين الكبيرة والأراضي المجاورة لطرابلس وأصحاب الآبار والمياه وكان هؤلاء يتقنون الزراعة وخدمة الأرض ويزرعون الحبوب بكميات وافرة كلما توفر المطر وكان انتاجهم يزيد عن حاجات الأهالي ويصدر الفائض منه الى موانئ اسبانيا عن طريق البحر. و الى جانب ذلك فقد كان هؤلاء يزرعون كميات وافرة من الثمار وانواع الفاكهة والحمضيات وأنواع عديده من الزيتون [1].

أما القسم الآخر وهو أصحاب الأراضي من العرب الذين يأنفون العمل بالزراعة مع أن أراضيهم كانت جيدة وفي غاية الخصب، ونظرا لعدم تطوير أساليب الزراعة البدائية في ليبيا وغياب سلطة الحكومة وعدم اهتمامها بأمور الفلاحين مال العديد من الأهالي إلى التجارة أكثر من ميلهم الى الزراعة [2].

ب/ التجارة الداخلية :

كان يوجد بمدينه طرابلس عده أسواق نذكر منها:

- سوق الربع وكان يعد من أشهر الأسواق بالمدينة ، وهو على شكل أربع صفوف وعلى كل جانب من هذه الصفوف اقيمت دكاكين وبساطات متراصة تحوي مختلف السلع والبضائع مثل الاواني والذهب والجواهر والعطور النادرة وغيرها من المنتجات الشرقية [3]
- سوق النخاسة وكان يباع فيه العبيد السود والإماء الرقيقات
- سوق البن وهو مكان مكتظ بالمقاهي ولا يقدم فيه غير شراء القهوة وكان يقصده الاتراك غالبا ليرتشف فيه بعض فناجين القهوة.

[1] نفس المرجع السابق ص 46
[2] نفس المرجع ص 47
[3] نفسه ص 47

- سوق الترك وكان يقوم التجار الاتراك والعرب فيه ببيع بضائعهم في متاجرهم الصغيرة وهو سوق صغير به دكاكين ذات وجهات زجاجيه يستطيع المرء ان يشتري فيها معظم ما يريد ومع ان طبيعة هذه السوق الشرقية فإن اغلب الحاجيات المعروضة للبيع كانت أوروبية الصنع [1]
- سوق الترزية : وفيه يركن ان النساجون لبيع اقمشتهم حيث يجرى المزاد العلني و فيه يجلس اليهود والايطاليون لخياطه وبيع الأنسجة المختلفة.

والى جانب ذلك فقد كان هناك اسواق للبقالة والملابس النسائية والحريرية والأواني النحاسية والحدادة والنجارة والخبز والخضار والنعال والبنادق والمصوغات الذهبية والفضية، هذا بالإضافة الى السوق الاسبوعية المسماة باسم سوق الثلاثاء الذي كان يجتمع فيه العديد من الاهالي من اجل البيع والمبادلة وعقد الصفقات [2]

ب/ التجارة الخارجية :

وعلى الرغم من أن التجارة الخارجية في هذه الفترة كانت محدودة فقد ظلت مدينه طرابلس على صلتها البحرية ببعض المدن الأوروبية وخاصة ايطاليا كما ظلت أيضا محطة رئيسية لقوافل الحجيج الكبيرة الوافدة من الغرب الى الشرق والعائدة من الغرب الى الشرق وقد كان وصول هذه القوافل الكبرى الى طرابلس من المشاهد الرائعة السنوية كما كانت اقامتها عده ايام بها فرصة لنشاط علمي وتجاري كبير حيث كانت تشتري الحرير الدمشقي الايطالي والمصنوعات الزجاجية البندقية وغيرها من المستوردات المتوفرة في اسواق طرابلس وتبيع ما تحمله من خيوط القطن والبن والعقاقير والتوابل وغيرها من الاشياء المجلوبة من الشرق والغرب. وكان الميزان التجاري مع اوروبا في عهد اسرة القره مانلية يميل غالبا لصالح طرابلس اذ ان قيمة صادراتها كانت تزيد بواقع الثلث عن الواردات [3]

[1] نفس المرجع السابق ص 47
[2] نفسه ص 47
[3] نفسه ص 48

والى جانب ذلك فقد كان هناك نشاط تجاري مع بعض المناطق الإفريقية امثال" تومبكتو" و "بورتو" فقد كان يأتي منها بعض المصنوعات اليدوية منها البسط والأحزمة الحمراء كما كان يجري تصدير الصوف الممتاز وجلود الماعز والضأن المدبوغة والفواكه المجففة وبعض التوابل هذا الى جانب القمح والشعير والابقار والاغنام [1]

د/ الصناعة :

مارس السكان الصناعة التي كانت متوارثة من العهود السابقة وقد برزت في ولاية طرابلس الغرب صناعه المنسوجات والدباغة وكانت اسواقها الرائجة داخليا وخارجيا [2]

[1] نفس المرجع السابق ص 48
[2] نفسه ص 48

2/ مظاهر الحياة العلمية والثقافية في ليبيا خلال الحكم العثماني:

من الصعب التحدث عن حياة علمية وثقافية مزدهرة في المرحلة المعروفة باسم العهد العثماني الاول وهي المرحلة التي تمتد من استرداد طرابلس من الاسبان 1551 حتى قيام الأسرة القره مانلية. فتأكد المصادر عدم الاهتمام باي نوع من انواع النشاط الثقافي والعلمي خلال هذه الفترة و خاصة ان الحكام انفسهم كانوا من طبقة لا صلة لها بالعلم و انما كانوا فئة من المغامرين والبحارة الذين تمكنوا من الوصول الى مراكز السلطة. وقد أدى إهمال شأن العلم والعلماء الى انحدار المستوى الفكري بين الاهالي الذين سيطرت عليهم الخرافات و مالوا الى التصوف والاعتقاد في كل من ادعى الولاية حق أو بغير حق ومع ذلك فقد كان للكتاتيب والزوايا دور ها في نشر التعليم الديني و بالنسبة لعصر الأسرة القره مانلية فقد بنى أحمد مدرسة بجوار مسجده كانت ذات أثر ملموس في إنعاش الحياة العلمية في البلاد [1]

وبالنسبة لمظاهر النهضة العلمية خلال العصر العثماني الثاني فتنحصر في جهود احمد باشا راسم في تطوير حركة التعليم والوقوف في وجه المدارس الأجنبية من ايطالية وفرنسية والإرساليات التي تسعى الى اجتذاب العناصر المحلية و صبغها بثقافتها [2]

وقد اشتهر من فقهاء الاسلام في طرابلس خلال هذه الفترة الفقهية أبي علي الحسني بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي "واحمد بن عبد الحميد اليربوعي" كما تنحصر في جهود "نامف باشا" الذي تأسست مدرسة الفنون والصنائع في عهده جريدة الترقي لصاحبها الشيخ محمد البوصيري ومجله الفنون لصاحبها داود افندي وقد حملت هذه الصحف لمحات من الروح الثقافية التي كانت سائدة بين المثقفين في ذلك الوقت وعبرت الى حد كبير عن المشاكل والقضايا التي تشغلهم واسهمت بشكل واضح في تطوير الحركة الثقافية في البلاد[3].

[1] نفس المرجع السابق ص 50
[2] نفسه ص 50
[3] نفسه ص 50

وفي جهود الوالي حافظ باشا الذي شهد تطور التعليم في عهده دفعه كبيره الى الأمام فأسس دار للمعلمين ، ومدرستين كبيرتين ومدرسة للبنات وإلى جانب ذلك فقد أسس العديد من المدارس الابتدائية في بعض المناطق الليبية [1]

ولم تقتصر مظاهر الحياة الثقافية والعلمية على الولاة العثمانيين بل قامت ايطاليا بإنشاء العديد من المدارس وتمويلها فأنشأت مدرسه فنيه تجاريه عالية ومدرستين ابتدائيتين. واحده للبنين واخرى للبنات وروضة اطفال للبنين واخرى للبنات وكان للجالية اليهودية ايضا مدارسها [2]

وهكذا يتضح ان كل محاولات الدولة العثمانية لتنظيم شؤون ليبيا لم تأتي أكلها المرجوا منها ويرجع ذلك لعده اسباب نذكر منها:

1- ان العثمانيين سيطروا على المرافق الساحلية في ليبيا ولم يهتموا بالداخل وعلى هذا اهملت المناطق الداخلية ولم تلقى من الحكومة العثمانية اهتماما واضحا.

2- ان أغلب مدة الولاة العثمانيين في ليبيا كانت قصيرة لذلك انشغل معظمهم بتحقيق مصالحهم الذاتية دون الاهتمام بمصالح الأهالي [3]

3- كثرة الحروب الداخلية وخاصة في عهد الأسرة القره مانلية وانتشار الأوبئة وخاصة مرض الطاعون وعدم نجاح الحكومة في السيطرة عليه وخاصة أن اهتمامها بالنواحي الصحية كان ضئيلا.

4- الإجحاف في فرض الضرائب على الاهالي وسوء طريقه تحصيلها منهم، هذا الى جانب ان العثمانيين لم يتمكنوا من خلق روح الولاء لهم في ليبيا وخاصة ان أهل ليبيا تمسكوا بالولاء للروح العربية بدلا من الولاء للعثمانيين وخاصة ان بلادهم تعرضت لكثير من حالات النهب على يد الولاة العثمانيين والمقربين منهم ومع كل ذلك فقد استفاد اهل هذه الولايات من تقوية الحياة الدينية الإسلامية وخاصة أن الحكام العثمانيين حافظوا على المشاعر الإسلامية للمواطنين العرب المسلمين فشاركوهم في الاحتفالات الدينية و مراعاة الشعائر الاسلامية هذا بالإضافة الى المحافظة على عروبة و اسلام هذه المناطق من الأطماع الصليبية [4].

---

[1] نفس المرجع السابق ص 50
[2] نفسه ص 50
[3] نفسه ص 50
[4] نفسه ص 51

المبحث الثاني : علاقة الدولة العثمانية بتونس

المطلب الأول : الدخول العثماني الى تونس

المطلب الثاني : العثمانيون يضمون تونس

المطلب الثالث : تونس ولاية عثمانية.

المبحث الثاني علاقة الدولة العثمانية بتونس :

المطلب الأول :

الدخول العثماني الى تونس :

بعد الانتصارات التي حققها خير الدّين في الجزائر توجه إلى تونس من أجل التخلص من الخطر الإسباني هناك ومن الأسرة الحفصية، فقام بالهجوم على تونس وتمكن من ضم بنزرت وحلف الوادي وتونس عام 1534 . وطرد سلطانها الحفصي مولاي الحسن ،غير ان خير الدين انسحب من تونس نحو عنابة بعد المعركة التي وقعت بينه وبين شارلكان الذي كان قد تحالف مع السلطان الحفصي [1]

ونظرا لتفاقم الوضع في تونس جاء رد العثمانيين الذين خاضوا العديد من المعارك مع الاسبان والتي انتهت بضم تونس عام 1574 من طرف سنان باشا وطرد الاسبان نهائيا منها وأصبحت بذلك ولاية عثمانية وتحولت بفعل تنظيمات سنان باشا الى مقاطعة عسكرية تعاقب على حكمها كل من البايلاربيات (1574 - 1590)يحملون لقب الباشا ، ثم الدايات وفي هذه المرحلة تمكن الباي مراد قورصو (1613-1631) من اخضاع حكومته لنفوذه الشخصي وبذلك تظهر الأسرة المرادية (1628- 1702) التي دخلت في صراع مع حكام الجزائر مما أدى الى ضعفها وسقوطها لتخلفها الأسرة الحسينية (1705-1881) نسبة الى مؤسسها الحسين بن علي [2] .

[1] عزيز سامح التر: الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية. ترجمه محمد علي عامر ،ط 1 ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1989 ، ص 109، 117.

[2] 2 جميل بيضون تاريخ العرب الحديث. د.ط الأهلية للنشر و التوزيع ، عمان 1989 ص 48

المطلب الثاني:

العثمانيون يضمون تونس:

بعد أن وطد خير الدين بربروس نفوذ الدولة العثمانية في الجزائر ومنطقتها أخذ يوجه أنظاره باتجاه تونس خوفا من ان يستخدمها الاسبان قاعده ضد الجزائر. وقد التقى هذا التفكير مع خطة الدولة العثمانية الرامية لمد نفوذها على اكبر قدر ممكن من تراب شمال افريقيا ،فاستدعى السلطان سليمان القانوني خير الدين الى اسطنبول عام" 939 - 1533" للإعداد للعمليات الحربية ضد الامبراطور شارل الخامس و حلفائه بعد ان يعيد تنظيم الاسطول العثماني ويبني سفنا عسكرية جديده ليقوي الترسانة البحرية العثمانية [1] .

طلب السلطان سليمان القانوني من خير الدين أن يعد خطة عسكرية بحرية لضم تونس إلى بوتقة الدولة العثمانية ، علما بأن موقع تونس مهم جدا لأنه يتوسط بين الجزائر وليبيا، وهي في الوقت نفسه قريبه من ايطاليا احدى مناطق الدول الرومانية المقدسة التي يرأسها الامبراطور شارل الخامس. وقريبة ايضا من جزيرة مالطا في البحر المتوسط وفي مركز جماعه فرسان القديس يوحنا الذين ما فتئوا يعتدون على العرب المسلمين في شمال افريقيا خاصه في منطقة طرابلس الغرب [32]

غادر خير الدين باشا مدينة اسطنبول العاصمة العثمانية ومعه ثمانية الاف جندي عثماني تحملهم 80 سفينه متوجهة الى تونس عام 940 هـ 1533 م .

وقد عبرت السفن مضيق الدردنيل متوجهة الى جزيرة مالطا. ثم غزت الحملة موانئ جنوب ايطاليا كي يصرف خير الدين انظار النصارى عن قصده الحقيقي المتمثل في ضم تونس وبعد ذلك توجه خير الدين صوب هدفه الرئيسي تونس فوصل ساحلها عام (941هـ 1534 م)و استولى عليها دون مقاومة تذكر ، واعلنت تبعيتها للدولة العثمانية بعد ان خلع حاكمها مولاي حسن الحفصي وعيّن اخاه رشيد باشا حاكما على تونس تابعا للسيادة العثمانية، لكن هذا الوضع لم يدم طويلا لأن شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة جمع حملة عسكرية من برشلونة الإسبانية ومن جماعه الرهبان القديس يوحنا ومن قواته وتوجهت القوات النصرانية الى تونس تحت قيادته لمحاربه خير الدين باشا وقواته وتمكنت الحملة الإسبانية الكبيرة من احتلال تونس واعاده شارل الخامس مولاي الحسن

[1] عبد الفتاح حسن ابو عليه : الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير، كليه العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، ص 183.

[2] فريد محمد : تاريخ الدولة العثمانية العلية.

[3]

الحفصي الذي كان قد طلب النجدة منه ضد حملة خير الدين الى حكم تونس ودخل جند النصارى تونس وعمل فيها من الاعمال السيئة والبشعة ما تقرف منه النفوس وتقشعر منه الابدان. كما أن الحفصي دفع تكاليف الحملة واحتل شارل الخامس بنزرت وعنابة و انسحب خير الدين باشا الى الجزائر [1]

عد العثمانيون سقوط تونس بيد شارل الخامس ضربة موجعة للنفوذ العثماني في شمال افريقيا ، خاصة و أن الدولة العثمانية هي صاحبة السيادة على المنطقة، وكانت الصدمة العثمانية أقوى وأشد عندما احتمى مولاي حسن الحفصي بشارل الخامس واصبح يحكم تونس بتفويض منه واصبح الحفصي بذلك تابعا له [2].

عين السلطان العثماني سليمان القانوني خير الدين باشا قبطان على الاسطول العثماني في البحر المتوسط عام 943 هـ 1536 م . تقديرا له على ما بدا له من اعمال جهادية ضد الاسبان في شمال افريقيا وعهد السلطان سليمان القانوني لحسن آغا إدارة العمليات العسكرية البحرية على الساحل الافريقي، وظل حسن آغا على رأس البحرية العثمانية في المنطقة مده سبع سنوات متتالية ، يجاهد ضد هجمات الاسبان المتلاحقة على بلاد شمال افريقيا خاصه بلاد الجزائر [3] .

عين السلطان العثماني سليمان القانوني حسن باشا ابن خير الدين باشا على قيادة الأسطول العثماني في الساحل الافريقي عام 951 هجري 1544 ميلادي وظل في هذا المنصب مدة ثماني سنوات متتالية [4] ، ومنحه السلطان العثماني رتبة " بايلر باي بك البكوات " بعد وفاة والده عام 953 هجري 1546 ميلادي واستطاع حسن باشا ان يسيطر على تلمسان غرب الجزائر وصارت تابعة للحكم العثماني في شمال افريقيا وخلف صالح ريس باشا حسن باشا في منصب الباشاوية في الجزائر وظل هذا الباشا في هذا المنصب مدة أربع سنوات بدأت بعام 960 هـ / 1552 م ، وفي عهد هذا الباشا امتد النفوذ العثماني الى الجنوب من الجزائر فوصل النفوذ العثماني الى تقرت وورقلة وبسكرة وعده عهد الباشا صالح ريس عهد تثبيت السلطة العثمانية في تراب الجزائر من شرقه الى غربه ومن شماله الى جنوبه [5]

عوده الى تونس فإن خلافات نشبت بين الحسن الحفصي وابنه حميدة استطاع الابن ان ينتزع الحكم من الأب بالقوة[6] .

---

[1] عبد الفتاح حسن أبو علية : الدولة العثمانية و الوطن العربي الكبير ، نفس المرجع السابق ص 184

[2] نفسه ص 184

[3] عبد الفتاح حسن أبو علية : الدولة العثمانية و الوطن العربي الكبير ، نفس المرجع السابق ص 184

[4] نفسه ص 185

[5] عبد الكريم رافق : العرب و العثمانيون 1516 – 1916 ، كلية الآداب – جامعة دمشق ط1 ص 110 .

[6] نفسه ص 110 .

وأصبح حميدة المسمى سلطان احمد حاكما على تونس استمرار لحكم الحفصيين فيها. وحاول السلطان احمد أن يقوي مركز أسرته في تونس عن طريق إقامة نوع من التوازن بين ولائه للإسبان وولائه للعثمانيين وظل سلطان على هذا النمط مدة 25 سنة.

في خضم الأحداث العسكرية الدائرة في البحر المتوسط بين الاسطول العثماني والاسطول الاسباني تمكن "درغوث باشا " وهو بحار تركي تولي قيادة الاسطول العثماني في الشمال الافريقي بمساعدة بيالة باشا من اضعاف مقاومة الاسطول الاسباني في البحر المتوسط على ساحل شمال افريقيا خاصة على الساحل التونسي، وأخذ درغوث وبيالة يخططان لإعادة السيادة العثمانية على تونس رغما ع الاسبان والحفصيين الذين ظلوا يتعاونون مع النصارى الاسبان محاولة منهم للاحتفاظ بحكم تونس .فحاول درغوث وبيالة ان يقطعا حلقه الاتصال بين الحفصيين والاسبان عن طريق اضعاف المساعدة الإسبانية التي تأتي للحفصيين. وعلى الرغم من ان درغوت باشا قضى نحبه في قتال مع النصارى في جزيره مالطا في البحر المتوسط عام 973 / 1565 الا ان مخطط العثمانيين في السيادة على تونس ظل ساري المفعول.

تمكن العلج علي باشا [1] من انزال هزيمة بالحفصيين ومن يؤيدهم، وسيطر على تونس عام 977/ 1569 م . وطرد اسرة الحفصي منها ولم يطل زمن التفوق العثماني في تونس لأن العثمانيين هزموا هزيمة كبيرة في واقعة ليبانت (ليبانتو) على يد الأمير "دونجوان" النمساوي شقيق الملك فيليب الثاني ملك اسبانيا عام 979 هجري 1571 ميلادي ، وقد تمكن دونجوان من دخول تونس والتعاون مع الحفصيين من جديد عام 981 هـ 1573 م .

لكن سرعا ما جاء الرد العثماني القوي على يد التصرف الاسباني، فهجم العلج علي ومعه سنان باشا الاسبان واتباعهم الحفصيين بقوات وصل عددها في حدود 60 الف مقاتل واستطاعت تلك القوات من سحق القوات الإسبانية عام 982 هـ 1674 م . وكان هذا الرد العثماني العسكري العنيف جواب على حادثه انهزام اسطولهم في واقعة لبانت من جهة، واحتلال الاسبان لتونس من جهة أخرى . وبعدها جعل العثمانيون تونس ولاية مثل الجزائر برتبه بيلربي (بك البكوات) وأنهوا حكم الحفصيين فيها [2] .

[1] عبد الكريم رافق : العرب و العثمانيون ، نفس المرجع السابق ص 111 .
[2] الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج2 ، ص 822 – 923 .

المطلب الثالث :

تونس ولاية عثمانية:

وصل الضعف والاضطراب بالأسرة الحفصية في منتصف القرن السادس عشر الى الارتماء في أحضان الإسبان وتوقيع معاهدة معهم تعطي الاسبان إمتيازات ضخمه وتبيح لهم سكن جميع انحاء القطر التونسي بل وتنازلت لهم عن مدن عنابة وبنزرت وحلف الوادي [1] .

وأدى هذا لثورة وطنية انتهت بتولية السلطان الحفصي ابي العباس الثاني الذي حكم تونس 942-980 هـ / 1535-1572 م ، لكن الأمور في تونس لم تستقر ، فالسلطان الحفصي لك يكن من القوة بحيث يستطيع ان يمسك بزمام الامور الداخلية وأن يقف في وجه الاطماع الإسبانية.

وحيث اشتد الخلاف بين الامير الحفصي ابن العباس الثاني ووزيره ابي الطيب الخضار اتصل هذا الاخير بالعلج علي والي الجزائر وحرضه على احتلال تونس، فانتهز هذه الفرصة وخرج على رأس جيشه حيث التقى بجيش الامير الحفصي عند سهل باجة وبعد قتال مرير انخذل ابو العباس وتقدم العلج علي صوب المدينة المحاصرة فاستحوذا عليها سنه 972 هـ 1565 م ، و نصب عليها احد قواده واخذ البيعة بها للسلطان سليم الثاني العثماني. اما ابو العباس الحفصي فقد لجأ الى الاسبان مستنجدا بهم فأعد الملك فيليب الثاني [2]. قوة كبيرة لمواجهة تونس على ان يقتسم مع ابي العباس الحفصي حكم البلاد ودخلها ولكن ابي العباس لم يقر الاسبان على هذا الفرض فلجأ الى صقلية سنه 980 هـ 1572 م . و أقام بها حتى مات. غير أن أخاه محمد بن الحسن قبل شروط الاسبان ، وتمكن بمساعدتهم من استرجاع تونس واخذ الاسبان يعملون مع الامير الحفصي على ترميم حصون حلف الوادي والباستيون وأسوار البلاد[3] .

[1] معاهده شار لومان والحسن الحفصي بتاريخ 942 هـ جويلية 1535

[2] تولى الحكم في اسبانيا بعد اعتزال ابيه شارل الخامس ولجوئه الى دير في اسبانيا 1552 1598.

[3] كان هذا الحصن (القامة) خارج باب البحر .

وفي ربيع الاول 981 هـ يوليو 1573 م ، خرجت قوة عثمانية كبيرة من القسطنطينية على رأسها سنان باشا الوزير العثماني بالإضافة الى قوة بحرية من نحو السفينة بقياده العلج علي وكان قد اصبح قائدا للأسطول العثماني فعمد لتقويته وتسليحه بأحدث الأسلحة في عصره. كما خرجت حامية تركية من طرابلس والجزائر والقيروان وحاصر العثمانيون حلف الوادي برا وبحرا فاضطر الاسبان والامير الحفصي الموالي لهم الى الحرب والالتجاء للحصون، فلحق بهم الجيش التركي وتمكن سنان باشا من تضييق الخناق على الحاميات الإسبانية حتى سلمت للجيش العثماني وقبض على الامير الحفصي محمد بن الحسن وارسله الى القسطنطينية و انطوت بذلك مرحله حكم الحفصيين في تونس بعد ان حكموا هذه البلاد ما يقارب من 350 عاما [1] .

فترة حكم الدايات:

لما تم سنان باش فتح تونس اخذ ينظم شؤونها فألحقها في بداية الأمر بولاية الجزائر لكنه أوجد بالقصبة ديوانا اشترك فيه بعض اعيان البلاد وعهد بحراسة البلاد الى 4000 جندي من الانكشارية على كل 100 جندي منهم ضابط يسمى الداي وجعل لهم رئيسا هو الاغا بينما عهد بجباية المال الأمر لقب بالباي ورجع سنان باشا الى الإستانة لكن ثار صغار الجند على رؤساء الديوان سنه 959 هجري 1591 ميلادي وعين احد الدايات ابراهيم ود علي حاكما على البلاد واضطرت حكومة الإستانة لإقرار هذا الوضع وقد تتابع على حكم تونس منذ ذلك التاريخ حتى عام 1840 معدد كبير من الدايات.

ومن اشهر هؤلاء الدايات عثمان داي 1598- 1610 وقد اشتهر بما بذله من جهد لتعمير البلاد وما اصدره من القوانين المنظمة لشؤون الرعية وكذلك ما بذله لتسيير استقرار مهاجري الاندلس الذين اقطعهم الاراضي ومنحهم الاموال فقامت عده مدن جديده احتضنتهم وعمروها.

كذلك يوسف داي 1610 هـ - 1631 م ومن اثاره الباقية جامعة ومدرسة اليوسفية وفي عهده اشتد الخلاف على الحدود بين الجزائر وتونس كمسترجع تونس جزيره جربه من ولاية طرابلس العثمانية[2]

[1] الناصري الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد : احمد بن خالد استقصاء اخبار دول المغرب الاقصى الدار البيضاء 1955 الاجزاء الاربعة الاولى ص 59 60 61

[2] شنوفي عطا الله الجمل المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ليبيا تونس الجزائر المغرب ط1 .1977. مكتبه الانجيل المصرية ص109.

فتره حكم البايات:

نجح أحد البايات هو مراد باي في ان يسيطر على شؤون تونس وان يغفر من الخلافة العثمانية بلقب باشا فتحول النفوذ من يد الداي الى الباي بل نجح مراد باي ان يورث الامر من بعده لأبنائه فأسس أسرة حاكمة في تونس هي الأسرة المرادية التي استمرت تحكم البلاد حتى عام 1114 هـ - 1702 م . وقد قام بيات هذه الأسرة بعدة مشروعات عمرانية من بناء المساجد ومدارس العلم وغير ذلك من الاعمال الهامة لكن كثر النزاع بين افراد الأسرة ذاتها على الحكم واستنجد فريق من المتنازعين بالجزائريين فانتهزوا هذه الفرصة للتدخل في شؤون تونس وقد خلفت هذه المنازعات الكثير من اعمال التخريب في المدن التونسية.

فتره حكم الأسرة الحسينية 1957/1705 :

في ربيع الاول سنه 1117هـ / يولية 1705 م ، انتقلت الولاية في تونس الى حسين بن علي فأسس اسره حاكمه جديده هي الأسرة الحسينية التي استمرت في الحكم في تونس الى الاستقلال واعلان الجمهورية بها عام 1957 م [1]

ومؤسس هذا البيت حسين باي الاكبر يرجع اصله لجزيره كرين[2] وفد ابوه على تونس ايام الدولة المرادية وانخرط في الجند ونشا ابنه حسين في كتف البيات من بني مراد وتدرج في عدة وظائف في الولاية حتى انتخب واليا وعمل حسين باي على ترميم سور مدينة تونس وتحصين قلاعهم ثم عمل على اقرار الامن والعدل في البلاد فازدهرت في عهده الزراعة والصناعة والتجارة.

ومن منشآته العلمية مدرستي الحسينية والنخلة وبني قصرا في بارد واتخذه مقرا رسميا للحكومة الأبالة ، كما بنى مسجدا واهتم بإحياء معالم مدينه القيروان وكانت قد تخربت اثناء الحروب بين افراد الاسرة المرادية.

فقد حاول حسين باي ان يضع حدا للتنافس بين الطامعين في الحكم فجعل الولاية وراثية في بيته يتداولها الاكبر فالأكبر منذ ذريته لكن مع ذلك خرج عليه ابن اخيه علي بن محمد وانتهى الامر باستشهاد الحسين باي جنوب القيروان في عام 1053 هـ / 1740 م ، وادي هذا لنشوب حروب متعددة بين افراد الاسرة الحسينية والى تدخل الجزائر في شؤون تونس.

فقد حفلت الفترة التي حكم فيها علي بن محمد 1740 هـ - 1756 والذي اشتهر في تاريخ تونس باسم الباشا علي وهو اللقب الذي منحه اياه عمه قبل خروجه عن طاعته بالحروب بينه وبين ابنه يونس الذي خرج عليه ثم بينه وبين ابناء حسين باي الذين أرادوا الثأر لأبيهم منه وطلبوا معونه الجزائر لهم فأمدتهم بجيش زحف على مدينه الكاف ومنها على تونس العاصمة فدخلها وقتل الباشا علي.

---

[1] شرقي عطا الله الجمل مرجع سابق ص 110

[2] كانت هذه الجزيرة تابعة للدولة العثمانية الي ان استقلت سنة 1898 والحقت بعد ذلك ببلاد اليونان

واشتهر علي باشا بتشجيعه للعلم والعلماء وقد كان هو نفسه على قدر كبير من العلم [1]

وقد جمع في قصر بارد ومكتبة حوت الكثير من المخطوطات النادرة فقد اغلبها اثناء الحروب والاضطرابات لكن نقل المتبقي منها لجامع الزيتونة وقد اهتم بتأسيس المدارس وتزويدها بحاجتها من الكتب وغيرها والتف حوله لفيف من الادباء والعلماء[2].

وتولى الأمر بتونس بعد ذلك ابن حسين باي محمد باي 1756 و[3]1759 ميلادي ثم علي باي الثاني 1759 و 1783 وقد اشتهر هذا الاخير باهتمامه بترقيه البلاد وتعميرها و بتصفية الفلاحة و الصناعة و تشجيع العلوم وقد وقع في مده ولايته خلاف مع فرنسا بسبب ضم فرنسا جزيرة كوريسيا لها عام 1768 وعدم اعتراف البالة في تونس بهذا الاجراء لكن سوية المشكلة واتاح ذلك فرصه لتونس لتقدم الدولة العثمانية مؤازرتها في حربها ضد روسيا عام 1771 م.

ومن مأثر علي باي عنايته بالعلم فإنشا المدارس و الملاجئ واهتم بتوفير المياه اللازمة لري مساحات واسعه من الارض.

وتولى الامر في تونس بعد علي باي ابنه حمودة باشا 1783 و 1814 فقام بأعباء الولاية بحكمه مسترشدا بمعونه عدد من اعين البلاد تخص منهم بالذكر الوزير يوسف صاحب الطابع[4] ، ورئيس المكتبة محمد بن محمد الاصرم وقائد الجيش سليمان كاهية فنهضت البلاد في عهده نهضه واضحه في مختلف مجالات الفلاحة والتجارة والصناعة وكان يفتخر بما تنتجه بلاده من مصنوعات ومنسوجات حتى انه كان يرفض لبس اي ملابس من المنسوجات غير وطنيه فكان في ذلك مثلا يحتذى به.

وحافلت فتره حكم حمودة باشا بالحروب ومن اشهارها المعارك التي خاضها ضد الثائر علي برغل الذي طرد علي بن محمد فرمالي حاكم طرابلس فاستنجد هذا الاخير بحمودة باي.

---

[1] لعلي باشا كتابا في النحو هو التسهيل لابن مالك في النحو

[2] من هؤلاء الادباء الشاعرات علي الفراء الصفاقسي ومحمد الورغي و الاديب محمد شريف العياضي الذي ترجم لعلماء عصره

[3] اشتهر هو ايضا بالعلم والادب وله قصائد مشهوره يتغنى فيها بوطنه تونس وهو في غربته بالجزائر قبل ان ينجح في استرجاع السلطة.

[4] - اصله مملوك دخل منذ طفولته في خدمه حمودة باشا فلمس فيه علامات النجابة والاخلاص فمازال يتدرج في وظائف الدولة حتى صار حافظا سر الباي وسمير نجم وعهده الدولة في كافه المهام وقد اثار مركزه هذا حساب كبار موظفي الدولة عليه فانتهز فرصه وفاه حمودة باي وتولي ابن عمه حمود بن محمد باي .

وأعقب ذلك استيلاء علي برغل على جزيرة جربة التابعة لإيالة تونس فأعد حمودة باي جيشا من 40 الف مقاتل هزم علي برغل واعاد القرمان لي الى حاضرة حكمه.

كذلك شن عدة معارك ضد الحكام الجزائريين الذين كانوا دائما يطمعون في مد نفوذهم لتونس.

هذا وقد ارتبط حمودة باي بعلاقات طيبه مع نابليون بونابرت كما ارتبط بمعاهدات التجارية مع كل من اسبانيا وهولندا والولايات المتحدة الامريكية وفي سبتمبر 1814 تولي عثمان باي امر تونس بعد وفاه اخيه حمودة باي نازعه السلطة ابن عمه محمود باي الاكبر سنا وبدا يصبح احق بالولاية حسب قاعده الوراثة المعمول بها في الدولة الحسينية وكان عثمان باي قليل الخبرة استهل حكمه بإبعاد اغلب اهل الراي الذين عاونوا اخاه في الحكم وانتهى الامر بقتل عثمان باي بعد ثلاثة شهور تقريبا من توليه الحكم وخلفه محمود باي في 24 سبتمبر 1814.

وقد شهدت تونس في فتره حكم محمود باي 1814 و 1824 الكثير من اوجه العمران فتعددت بها الجوامع والزوايا والمدارس والكتاب والمستشفيات وغير ذلك من اوجه العمران[1].

ساعد ذلك على الهدوء الذي ساد البلاد بعد انتهاء مشكلات الحدود مع الجزائر وعقد الصلح نهائي معها بتدخل الدولة العثمانية لكن يؤخذ علي محمود باي قتله للوزير يوسف صاحب طابع الذي ادي للدولة خدمات جليله في عهد حمودة باي والذي اشتهر بالتقوى والبر ،لكن نجح بعض حساده في الايقاع به لدى الباي الجديد فقتله ظلما في عام 1815 كما ذكرنا سابقا.

وخلف محمود باي ابنه حسين باي 1824 و 1835 وقد قام بالكثير من الاصلاحات بمعاونة نخبة ممتازة من الرجال الذين اصطفاهم لمساندته منهم وزيره الاكبر شاكير صاحب الطابع وزير القلم والقائد محمود الجلول.

وقد عصرت ولاية احداث هامة وخطيره في العالم الاسلامي كان لها صداها في تونس ففي عام 1827 وقعت موقعه نوارين البحرية التي التقى فيها الاسطول العثماني معززا بسفن حربية من مصر والجزائر وتونس بالأساطيل الأوروبية في المياه اليونانية ودارت فيها الدائرة على السفن الإسلامية ومنها مهاجمه فرنسا عام 1830 للجزائر مما اضطر الكثيرين من اعينها للهجرة الى تونس فاكرم الباي وقادتهم.

وخلف مصطفى باي اخاه في الولاية لكن مدة ولايته لم تدوم اكثر من عامين ونصف عام فقد توفي في اكتوبر 1837 وخلفه المشير احمد باي 1837 و 1855 و حفل عهده بمظاهر

[1] شوقي عطا الله الجمل مرجع سابق ص 113

الحركة الإصلاحية وقد وجه عنايه خاصه للنهوض بالجيش فاقبل على جميع الجنود وتربيتهم وتدريبهم حتى أصبحت لديه قوة ضاربة لم تنتظم لغيره من ولاة تونس[1]

و أنشأ أحمد باي مدرسة عسكرية لتخريج الضباط التقنيين والمهندسين والموظفين اطلق عليها اسم مكتب المهندسين او مكتب العلوم الحربية او مدرسه باردو العسكرية.

وقد جلب لها احمد باي أستاذه ايطاليين وانجليز وفرنسيين وكانت تدرس فيها الرياضيات والمدفعية والتعبئة الحربية والشخصيات والتاريخ والجغرافيا [2]

وقد اصبح لتونس جيش يزيد على ثلاثين الف جندي من المشاة وفرقة من الخيالة واربع اليات من المدفعية اما الاسطول فقد دعمه بشراء 12 باخرة حربيه وبارجه من الطراز الكبير اطلق عليها اسم الحسينية وعد مرسى حربي بخار الملح الحق به دار الصناعة السفن بحلق الوادي ومعامل لصنع السلاح واصلاحه

وقد اهتم المشير احمد باي بتنظيم التعليم بجامع الزيتونة فعمر خزانته بالعديد من الكتب ودع عددا من الأساتذة الاجانب للحضور لتونس للالتقاء بأساتذة هذه الجامعة وكان لهذا اثره في الاحتكاك بين العقلية الغربية والعقلية الإسلامية.

ونشير في هذا المجال إلى زيارة الباي نفسه لفرنسا مصحوبا بخاصه رجال الدولة، فزاروا اهم معالم العاصمة الفرنسية ،وكان لهذا الاحتكاك الفكري والثقافي اثره بالإضافة الى اثر ذلك في توطيد العلاقات بين الدولتين وقد افاض احمد بن ابي الضياف في وصف ما شاهدوه في باريس[3].

[1] - احمد بن ابي الضياف التحق اهل الرمان بأخبار ملوك تونس و عهد الامان تونس 1963 و 1964 الجزء الرابع صفحه 25 المؤلف هو ابن الشيخ بضياف كاتب الوزير يوسف صاحب الطابع ولد بتونس في 1804 وتلقى العلم على مشاهير عصره ثم تولى عده وظائف حتى كان عهد المشير احمد باي فقربه وجعل بيده قلم الدولة واعتمد عليه في استشارته للدولة العثمانية و اصطحبه معه لفرنسا

[2] -الفاضل بن عاشور الحركة الأدبية والفكرية في تونس 1956 ص 22 23

[3] -احمد بن ابي الضياف. الالتحاق ج3 ص96 الي 110

ومن مآثره الثقافية تأسيس المكتبة الأحمدية في عام 1840[1] . ويذكر لهذا الباي اصداره الامر بغلق سوق العبيد في العاصمة كما اصدر امرا في عام 1846 بعتق جميع العبيد الموجودين بتونس.

وقد انشا مدينه جديده على بعد 14 ميل من تونس عرفت باسم المحمدية وعمرت هذه المدينة بعد أنشائها فنقل اليها مقر حكومته بدلا من باردو على ان ماليه تونس لم تحتمل كل هذه الاصلاحات فاضطرت الحكومة لإحداث ضرائب جديدة علي الصادر و الوارد ومكوس على الاشياء المباعة لسد عجز ميزانياتها كما احتكرت الحكومة بيع مواد مختلفة كالملح والدخان والجلد والصابون.

كانت هذه الاوضاع الاقتصادية بالإضافة الى الحكم المطلق المستبد بداية المشكلات التي واجهتها تونس فقد ادى ذلك الى تدهور الحالة فجاعت الجنود وتفرق الجيش واغلقت مدرسه باردو ابوابها وذلك لزياده الضرائب مما اثقل الظهر واوجب الفقر كما يقول محمد بيرم التونسي[2]

فقد زاد في الاعباء المالية التي تحملتها تونس وادى لزيادة التدهور الاقتصادي اشتراكها في حرب القرم 1704 الى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا هذا بالإضافة الى مفاسد كبار رجال الدولة[3]

وحين تولى محمد باي الثاني 1855 و 1859 تصدى لإصلاح الاوضاع التي وصلت اليها البلاد.

ومن أبرز اصلاحاته الاصلاح الدستوري فأصدر عام 1857 ما عرف باسم عهد الأمان[4] ، وقد أدت لإصداره عدة ظروف فقد كانت الدولة العثمانية قد طالبت بتطبيق فرمان التنظيمات الذي اصدره السلطان عبد المجيد عام 1839[5] وكان سفراء الدولة الأجنبية يضغطون من جانبهم على الباي العالي مطالبين بسرعة تطبيق هذه التنظيمات التي تحفظ حقوق رعاياهم في كافه الولايات العثمانية واستغلت فرنسا وانجلترا ظروف صدور الحكم على يهودي في تونس بالإعدام، فضغط القنصل الفرنسي ليوناردو روشي و القنصل الانجليزي " ريتشارد وود " على الباي منتقدين الحكم الصادر مطالبين بتطبيق فرمان التنظيمات الخيرية ووصل الامر لتلويح القنصل الانجليزي بان الاسطول البريطاني في مالطا مستعد للتدخل عندما يتطلب منه ذلك. كما هاجم وزير خارجيه فرنسا في 20 يوليو 1857 تصرف الباي في القضية التي حكم فيها بإعدام اليهودي [6]

---

[1] الحبيب الجمباني الحركة الإصلاحية في تونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر حوليات الجامعة التونسية 1969 ص 117.

[2] محمد بيرم التونسي صفوة الاعتبار لمستودع الامصار و الاقطار القاهرة 189ج3 ص6-9

[3]

[4] انضر نصوصه في ملاحق كتابنا هذا

[5] محمد بيرم ج 5 مرجع سابق ص 55-58

[6] احمد بن ابي الضياف ج 4 ص 233-245

في هذا الجو قام الشيخ بن ابي الضياف كاتب اسرار الوالي بصياغة نصوص عهد الامان بالاسترشاد بما جاء في التنظيمات الخيرية العثمانية وفي موكب حضر فيه ممثل الدول الأوروبية وكبار موظفي الدولة واعيانها قرئت نصوص عهد الامان في 20 محرم 1274 و 10 سبتمبر 1857 وحلف الباي على العمل بمقتضاه[1] .

والحقيقة أن صدور عهد الأمان في وسط هذه الظروف والملابسات ان دل على شيء فهو يدل على زياده تدخل الدول الأوروبية في سياسه تونس الداخلية وقد كسب الاجانب بمقتضى هذا العهد مزايا عديدة من حيث مساواتهم بالمواطنين في حقوق الملكية وحق العمل والتقاضي وغير ذلك مما كانوا محرومين منه[2]

واعتنى محمد باي بعد ذلك بتنظيم القضاء الشرعي فكان المجلس الشرعي يعقد يوميا بانتظام منذ عام 1273هـ و 1857 م ويحضره القاضيان المالكي والحنفي وليس ادل على حرصه على انصاف المظلوم من حيث هذا المنشور الذي اصدره يحرض فيه المظلوم على رفع ظلامته ويثبت شكايته ويبرا الى الله من مظلمته ان لم يبادر المظلوم بشرح حالته.

كذلك احدث في عام 1758 مجلسا بلديا بتونس لتنظيم شؤون المدينة واصلاح طرقها وانارتها [3]

ويذكر هذا الباي ادخالها الطباعة العربية لنشر الاوراق الرسمية وقد اشتهر في دولته كثير من رجال العلم اذكر منهم شيخ الاسلام محمد بيرم الرابع والقاضي محمد الطاهر بن عاشور وغيرهما كثيرون.

وفي المجال الاقتصادي تصدى محمد باي لمواجهة الوضع الذي كانت تشكوا منه البلاد ولم يلجأ لحل الأزمة المالية الى سياسة الاستدانة او الى ارهاق الاهالي بالضرائب بل بالعكس فانه خفف الجبايات عموما و اسقط ما كان على الاهالي من ضرائب وعوضها بضريبة اخرى تعرف بالمجي يدفعها الرجال القادرون من سكان المملكة وقدرها 36 ريالا في السنه ولا شك ان سياسه الاقتصادية هذه تدل على حنكه فقد انقذ البلاد من هاويه كما يقول ابن ابي الضياف[4]

[1] نقولا زيادة تونس في عهد الحماية 1996 ص 153-154
[2] محمد بيرم مرجع سابق ص 8-10
[3] شوقي عطا الله الجمل المرجع السابق ص 117
[4] احمد بن ابي الضياف ج 4 مرجع سابق ص 203-204

وكانت فترة ولاية محمد الصادق باي 1859 و 1881 حاسمه في تاريخ تونس وبذلت في هذه الفترة جهودا صادقه في محاوله اصلاح اوضاع البلاد.

لكن تصادم بعوامل اخرى اقوى منها تهوي بالبلاد الى اقصى درجات الاضمحلال وتقربها من براثن الاستعمار المخيف خلقتها ايد الطامعين الاجانب.

ويجمع عدد كبير من المؤرخين على ان محمد الصادق باي كان منذ بداية عهده عاقد النية على الاصلاح ويعمل هؤلاء الاوضاع التي وصلت اليها البلاد الى المقربين للباي والذين القى عليهم بمقاليد الامور فأساءوا التصرف و استغلوا الثقة الممنوحة لهم في الاثراء على حساب الوطن وامنه ولعل ابرز دليل على نيه الاصلاح الاصلاحات العدلية التي اتخذها الباي لتقنين عهد الامان وانشاء المجالس الاهلية للفصل في القضايا والمجلس الاعلى من 60 عضوا لا بداع الراي في المسائل السياسية والاقتصادية وقد بدأت هذه المجالس نشأتها منذ افريل 1861 م.

وكما يقول أحمد بن أبي الضياف : اذا كانت المصلحة السياسية قد اقتضت وجود عهد الامان فان حفظ النفس والمال قد اقتضى انشاء مجالس للجنايات والاحكام الشرفية ومجالس عليا للتحقيق[1]

وقد تلقى الباي في تهنئه الامبراطور نابليون الثالث على هذه الاصلاحات العظيمة [2]

وان كانت فرنسا وايطاليا بالذات قد رحبت بهذه التشريعات التي كفلت حق ملكية العقارات وممارسه الحرف مما ادى الى تدفق المهاجرين الاجانب من اصحاب المصارف والمتاجر والمغامرين على البلاد لكن كان هناك اعتراض على عدم منح رعايا هذه الدول الامتيازات التي اقرتها الدولة العثمانية [3]

على ان التدهور الاقتصادي الذي بدأت تعاني منه تونس منذ 1830 وصل في هذه الفترة الى اقصاه بحيث طغى على كل محاولات الاصلاح.

ويرجع هذا الوضع الذي الت اليه البلاد الى عده عوامل منها:

1- انقياد الصادق باي الى شخصيات ثبت انها لم تكن اهلا للثقه وفي مقدمة هؤلاء وزيره الاكبر مصطفى خزنه الدار الذي تولى عده مناصب في وقت واحد وزارة العمالة و الداخلية والخارجية والمال ووصلت جمله مرتباته مقابل مناصبه وهذه في وقت كانت البلاد واهلها يئنون فيه من الضائقة المالية 380 الف ريال تونسي سنويا.

[1] محمد بيرم مصدر سابق ج 5 ص320
[2] شوقي عطا الله الجمل مرجع سابق ص 118
[3] Safwat M M op cit p27-40-51

لم يكتفي هذا الوزير بذلك بل حرص على ان يحصل على الثروة بكل طريق اخر فاستأصل الاموال من اربابها ورماهم بالذل والافلاس وصارت مفاسده على كل لسان يتناقلها العامة والشعراء وغيرهم [1]

ولم يقف الباي موقفا حازما من وزيره فقد كان ينقاد اليه انقيادا كاملا [2]

وقد سار على منهج مصطفى خزنة دار غيره من ارباب الدولة فكان هم كل منهم ان يامن على نفسه بثروة بعدها لتقلبات الزمان فامتدت الايادي الي الاموال بحق او بغير حق حتى اصبحت البلاد على شفا الهلاك[3].

2- لجات الحكومة لسد العجز في ميزانيتها عن طريق الاقتراض من الاجانب فاقترضت اولا مليون فرنك بأرباح فاحشه ثم عقدت قرضا ثانيا قدره 35 مليون فرنك من فرنسا عبثت به الايدي قبل ان يصل الى خزينة الدولة واخيرا لجا الباي الى مضاعفة الضرائب على الاهالي واصدر سنه 1863 قرارا بذلك فكان هذا بمثابه الشعلة التي اشعلت نار الثورة.

ثورة 1864 اسبابها ونتائجها :

تزعم الثورة التي نشبت عام 1864 على ابن غذاهم وهو من قبيله ماجر ولا شك في ان مضاعفة المجي لم يكن السبب الوحيد وراء هذه الثورة فان الوضع كله في تونس من زياده في اداء المجي الى مجموعه تكاليف الجبائية الى تعسف العمال والحكام في الاقاليم الى اثراء المماليك الفاحش الى بطء سير العدالة

الى سخط الجنود من اجل تخلف مرتباتهم الى العصر الشديد في الحالة الاقتصادية الى التبذير في النفقات الى تزايد غضب الشعب على المنح المخولة للقناصل الاوروبيين كل هذه كانت الدوافع الباعثة على الخنق والسخط [4]

وقد كتب علي بن غذاهم في 17 صفر 1281 هجري و 22 يوليو 1864م . يقول ان مطالبه هي نهي الظلم عن المظلوم و الوقوف عند باب الحق قدر الاستطاعة....

ان ثوره الناس هي لرفع الظلم ونهي البغاة والعمال الذين طالت ايديهم [5]

وفي رسالة اخرى مؤرخة اول ديسمبر 1865 عبر هذا الثائر للباي انه سوف يستمر الى ان تخفف الدولة من الضرائب التي اثقلت كواهلنا على حد قوله.

[1] محمد بيرم مصدر سابق ج 2ص 23
[2] شوقي عطا الله الجمل مرجع سابق ص 119
[3] مرجع نفسه ص 119
[4] سلامة ب ثورة علي بن غذاهم 1864 تونس 1927 ص 49
[5] نص الرسالة موجود في عبد الجليل التميمي بحوث ووثائق في التاريخ العربي1816-1871 تونس 1973ص81-82

والحقيقة ان هذه الثورة في تطوراتها وفي المواقف الدول الأجنبية منها تعطي صوره واضحه للأوضاع التي آلت اليها تونس في ذلك الوقت كما توضح بجلاء مرام الدول الأجنبية واهدافها التي كانت تسعى لتحقيقها.

فحين شعر الباي بعجزه عن وقفه تيار الثورة اضطر للرضوخ لبعض مطالب الثوار الخاصة بالعودة بالضرائب الى ما كانت عليه لكن لم يصبح من السهل قمع الثورة بهذا الشكل بعد ان اندلعت و لذي تطورت مطالب الثوار فاصبحوا يطالبون بمراجعه نظام الضرائب كله ثم طالبوا بعزل العمال ومحاسبتهم عما اقترفوه في حق الاهالي وتطور الامر الى المطالبة بتعديل النظام القضائي لما فيه من تطويق في الاجراءات وارهاق للرعية بل طالب بتعديل الدستور فكان شعار ثوار كفانا مجي ومماليك و دستور [1]

وقت شرح ذلك بوضوح مدير مدرسة باردو الحربية في رسالة التي بعث بها الى وزير الحربية الفرنسي بقوله ان الاعرابي يطلب من سعادته ان لا يثقل كاهله بالضرائب الفادحة وان يسوس اموره اقل عدد ممكن من المأمورين وان تكون العدالة التي تطبق سريعة الاجراءات خاليه من التشعب ولكن لا يوجد شيء من هذا اليوم.

وهكذا نرى ان الثورة كانت واضحه المطالب والاهداف وكانت دوافعها سياسية واجتماعية واقتصادية وكانت قومية شاركت فيها غالبية الشعب التي كانت تعاني من المظالم إن دلت على شيء فهي تدل على الوعي الشعبي.

اما مواقف الدول الأجنبية والباي العالي من احداث الثورة فهي كما ذكرنا تنبع من الاهداف والمرامي الحقيقية لهذه الدول.

فمن جهة الدولة العثمانية اهتمت بالأمر من حيث تباعيه تونس للباي العالي والخوف من اطماع الدول الأوروبية وكانت احداث الجزائر ما زالت مائله في الاذهان لذا اوفدت الدولة سفيرها في ايران حيدر افندي الى تونس لبحث الاوضاع فيها وكانت التعليمات التي زود بها نقتضي بالعمل على تأكيد تبعيه تونس للدولة العثمانية وقد ادرك هذا المندوب العثماني حقيقة الوضع ،فأشار الى إسراف الباي وحكومته الى افلاس البلاد وان هذا الوضع فتح الباب على مصراعيه للتنافس بين القناصل كل من انجلترا وفرنسا وايطاليا للبلاد وقد اثار وجود المبعوث التركي مشاعر الجماهير فاندفعت في المساجد والشوارع للتعبير عن تعلقها بالسلطان حامي الاسلام.

[1] جانجيان جان ثورة 1864ثورة علي بن غذاهم اصول الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية تونس 1925 ص 120

أما من جهة فرنسا فان قنصلها في تونس دي بوفال وجد في هذه الثورة فرصة ذهبية للتدخل في شؤون تونس فنادى بتشجيعه للثورة بل تقدم بطلب تنحية المعروفين بعدائهم لفرنسا عن مراكز السلطة كما طالب بإلغاء الدستور وشاع خبر هذين المطلبين بين الاهالي وكان لذلك وقع سيء في النفوس فقد وجد الناس في هذا تدخلا سافرا في شؤون البلاد من فرنسا لتثبيت نفوذها دون قتال [1]

اما القنصل الانجليزي ريتشارد وود فقد كان على النقيض من ذلك يطالب بإلحاح بالالتزام بالدستور بل انه لم يفتأ يسدي النصح للباي عما يجب عمله لإخماد الثورة بل انه قام بجولة في عده مدن ساحلية بحجة ممارسة نشاطه الدبلوماسي وكان يجتمع بالأهالي ويبصرهم بعاقبه الامور ويدعوهم للالتفاف حول الباي والركون للهدوء [2]

اما ايطاليا فقد كانت تخشى ان تلقى تونس نفس مصير الجزائر وكانت الجالية الإيطالية بتونس اكبر الجاليات الأجنبية وكانت لغتهم اكثر اللغات انتشارا فكانت مطامعهم في تونس واضحة ولذا فقد حشدوا في السواحل الإيطالية الغربية قوة كبيرة لتكون على اهبه الابحار والتدخل في الوقت المناسب [3]

على كل لقد استطاعت قوات الحكومة في النهاية ان تقضي على الثورة بعد أن نشرت الفرقة بين صفوف الثوار منذ يوليه 1864م استسلم وانتهى الامر بالقبض على بن غداهم وزج به في السجن وبقي به حتى وافاه الأجل المحتوم في 11 أكتوبر 1867 م .

على ان هذه الثورة في تطورها والتفاف الجماهير للمطالبة بأهداف واحدة محددة كانت في الحقيقة تعبيرا قويا عن حيوية الشعب التونسي وعن رفضه للضغوط و لعوامل الظلم الجور ، و لكل تدخل اجنبي في شؤون بلاده .

على ان البلاد لم تكد تتخلص من الاضطرابات التي لازمت هذه الحركة الشعبية حتى ابتليت في اوائل سنة 1282 1865 بظهور مرض الكوليرا . ثم تلى ذلك انتشار الحمى التيفوسية سنة 1867 وادى ذلك لتعطيل الانتاج الزراعي والصناعي فانتشرت المجاعة والقحط وارتفعت الاسعار ولاقى الناس من ذلك ضيقا شديدا [4]

[1] وثائق فرنسية وثيقة رقم 353
[2] تولية ننصبه كقنصل لإنجلترا في تونس عام 1857
[3] ابن ابي الضياف ج5 مرجع سابق ص 170-171
[4] محمد بيرم ج 2 مصدر سابق ص35-37

ولم يكن امام الحكومة التونسية في هذه الظروف الا طرق ابواب الاقتراض ففي عام 1865 عقدت فرضا في باريس قيمته 25 مليون فرنك ولما عجزت الدولة عن دفع فوائد القروض وامتنعت البنوك عن اقراضها لجات للاقتراض من الاجانب المقيمين في تونس ذاتها و انتهى الامر بتوحيد الديون في دين موحد بفائدة12 بالمئة و شكلت لجنة مالية مختلطة كوميسيون مالي من اجانب وتونسيين تتول قبض ايرادات الدولة وتوجيهها وقد قسمت هذه الايرادات التي قدرت 13 مليون فرانك الى قسمين متساويين خصص القسم الاول منها لسداد الديون والثاني للخزانة [1]

وقد تراس هذا الكوميسيون المالي عام 1869 خير الدين وظل كذلك حتى تولى رئاسة الوزارة بعد سقوط مصطفى خزانة دار عام 1873.

وكانت توليه خير الدين الوزارة عام 1873 فاتحة عهد جديد [2]

وقد عبر الشعب التونسي تعبيرا صادقا عن فرحه لعزل مصطفى خزنة دار وتوليه خير الدين [3]

بدأ خير الدين بعلاج المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقضائية التي كانت تعاني منها البلاد فألقى الضرائب المرهقة التي كان يشكو منها الشعب و اجرى حركة التطهير بين الموظفين و اصدر عفوا عاما عن المعتقلين السياسيين ونظم العلاقات بين الملاك والمزارعين والحكومة ووزع مساحات من الاراضي على صغار المزارعين وشجعهم على زراعة الزيتون والنخيل على وجه الخصوص وابطال الحملات العسكرية لتحصيل الضرائب بالقوة والارهاب و اوجد اول مجلس صحي لمراقبة الامراض الوبائية واحدث ادارة للأوقاف العامة بنظام محكم وشرع في توحيد الاحكام في البلاد وانشا في عام 1875 المدرسة الصادقية وهي اول معهد درست فيه العلوم العصرية في تونس وكان هدفه من تأسيسها التوفيق بين العلوم العصرية والعلوم والتقاليد الإسلامية لتعليم اللغات وفكر في ارسال الممتازين من خرجيها للدراسات في جامعة اوروبا كما زاد مرتبات المدرسين بجامعة الزيتونة وامر بإصلاح التعليم فيها كما أسس المكتبة الصادقية وجمع بها سائر الكتب التي كانت مبعثرة في الجوامع والمدارس وقد حظيت حركة الطبع والنشر في أيامه

---

[1] محمد بيرم مرجع سابق مرجع سابق ج2 ص41 نص الامر الصادر بترتيب الكومسيون المالي

[2] لعب خير الدين دورا حاسما في تاريخ تونس في هذه الفترة فكانت له مواقف وطنية حكيمة في بداية حكم الصادق باي حيث كان عضوا في المجلس الخاص ورئيس المجلس الشورى وكان وراء تدعيم المؤسسات الدستورية واعترض علي مضاعفة الضرائب علي الاهالي ونصح الباي بالعدول عن ذلك مذكرا اياه ان ذلك يؤدي الي مصاريف مضاعفة لتجهيز الجيوش لإخضاع الغاضبين وقد اعتزل السياسة فترة الف فيها كتابه المسمى اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك :طبع عام 1284 هـ / 1867 م ، كما طبع مرة أخرى بالإسكندرية في 1299 هـ / 1882 م .

- المنجي الشملي : خير الدين باشا (تونس 1972)
- كذلك أبو القاسم محمد كرو : خير الدين التونسي (تونس 1973)
- كذلك أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث 1948 / ص 125 و ما بعدها)

[3] محمد بيرم مصدر سابق ص44-47

باهتمام وتعظيم و لقيت صحيفة الرائد وهي اول صحيفة عربية في تونس تشجيعا منه لها الاستمرار

هذا وقد بذل جهده لإحياء الصناعات الوطنية التي كانت قد اخذت في الاندثار وراجت التجارة في عصره [1]

لكن رغم ما حققه في مختلف الميادين من نجاح، كان كفيلا لو سار الى نهايته ان يخلص الامة التونسية من الاوضاع التي تردت فيها فقد اضطر خير الدين بعد اربع سنوات من توليه الحكم الى ان يطلب اعفاءه بسبب الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك له خاصة من مصطفى بن اسماعيل الذي نال الحضور عند الباي وكان تخليه عن الحكم في عام 1877 وتوليه مصطفى بن اسماعيل بداية للنكسة التي اصابت تونس فأصبحت البلاد مثل مركب فقد ربانه وسط الخصم تتلاطمها الامواج وتتقاذفها الرياح من كل جانب فلا تدري اي ساحل تقصد [2]

وما زالت الحالة الداخلية في تونس تتدحرج وترتبك في وقت كانت الدول الاستعمارية الطامعة فيها تسير الامر لتحقيق اهدافها حتى تهيئت الظروف لفرنسا لتضرب ضربتها.

[1] شوقي عطا الله الجمل مرجع سابق ص 125

[2] محمد بيرم: ج 2 ص83 ظروف الاستعفاء خير الدين

المبحث الثالث : علاقة الدولة العثمانية بالمغرب الأقصى .

المطلب الأول : العثمانيون و المغرب الأقصى

المطلب الثاني : التحالفات العثمانية الوطاسية

المطلب الثالث : المراحل التي مرت بها العلاقات العثمانية المغربية .

المبحث الثالث :

علاقة الدولة العثمانية بالمغرب الأقصى:

المطلب الأول: العثمانيون والمغرب الأقصى

ان مراكش ذلك القطر العربي الاسلامي الذي يحرس الجناح العربي في الغرب من الوطن العربي الذي تسلمت زمام الحكم فيه اسرة شريفة هي الأسرة السعدية منذ اوائل القرن السادس عشر واستمرت تحكم حتى منتصف القرن 17.

وعلى الرغم من نجاح العثمانيين في الاستيلاء على الجزائر وليبيا وتونس وبالرغم من موقع مراكش المهم عسكريا بالنسبة للعثمانيين وخاصة ان سواحلها تطل على البحر المتوسط والمحيط الاطلنطي كما انها تقترب من اسبانيا من ناحية بوغار جبل طارق فقد ظل هذا الاقليم بمنأى عن السيطرة العثمانية التي حاولت ادماجه في بقية اقاليمها كما حدث لبقية اقاليم العالم العربي ولكن مراكش استطاعت الاحتفاظ بشخصيتها الإقليمية ووقفت بإصرار ضد الاطماع التي هددتها سواء من جانب العثمانيين او الاسبان لفترة طويلة وفي ما يلي نعرض اسباب ذلك[1]

فبعد ان تأسست دولة الأشراف السعديين في مراكش على انقاذ الأسرة الوطاسية وتمكنت من تثبيت اقدامها هناك التمس ابو حسون الوطاسي مساعدة السلطان العثماني " سليمان القانوني " الذي كان يدرك اهمية موقع مراكش ويرغب في وحدة شمال افريقيا خلال الصراع المحتدم بين المسلمين والاسبان والبرتغاليين هناك مما يعطيه ثقلا عسكريا في صراعه مع الامبراطور الاسباني شارل الخامس.

نتيجة لذلك امر السلطان العثماني بإعداد حملة لفتح مراكش بالتعاون مع" ابي حسون الوطاسي" وقد تمكنت هذه الحملة من دخول فاس في عام 1554 واعادة حكم الأسرة الوطاسية علي مراكش تحت السيادة العثمانية و لكن ذلك لم يستمر سوى بضعة اشهر حيث استطاع محمد المهدي السعدي استرداد فاس من العثمانيين.

[1] عبد المنعم ابراهيمي الجميعي الدولة العثمانية و المغرب العربي جامعة القاهرة فرع القيوم دار الفكر العربي ص61

ونتيجة لإصرار السعديين على عدم الانطواء في السيادة العثمانية امر السلطان سليمان القانوني لاستعادة فتح مراكش وقد عهدت قيادة هذه الحملة الى صالح ريس وكان من المتوقع ان تستقر الامور للعثمانيين هناك وخاصة ان السلطان العثماني سليمان القانوني كان يهدف الى جمع الصف الاسلامي لتصفية الجيوب الصليبية في مراكش و في دخول الدولة السعدية في تبعية الدولة العثمانية طوعا ولكن السعديين رفضوا الاعتراف بخلافة السلطان العثماني على اساس ان العثمانيين ليسوا عربا و انما هم اعاجم وبان الشرافة في مراكش يجب ان تكون لهم وخاصة انهم يعتزون بنسبهم الى الرسول عليه الصلاة والسلام وازداد تطلع الباب العالي الى ضم المغرب الاقصى بعد التنافس على عرش السعديين بعد وفاة عبد الله الغالب بالله السعدي في رمضان 981 هـ يناير 1574 م و تواجد بعض المطالبين بهذا العرش بالاسنانة.

ولكن انشغال الدولة العثمانية بالاستعدادات لفتح قبرص ولجوء أعداد العثمانيين في المغرب الى سياسة التقرب من دول اوروبا الغربية قد حال دون ذلك [1]

وبعد معركه وادي المخازن في 30 جمادى الأولى 986 هـ اغسطس 1578 م . التي انتصر فيها عبد الملك السعدي على القوات الإسبانية اعترفت الدولة العثمانية بسيادة السعديين على المغرب الاقصى وتوقفت عن فكرة التدخل المباشر في المغرب كما حفظت الدولة السعدية للعثمانيين الود وتبادل الطرقات الوسائل التي تدل على حسن العلاقات الجوار بينهما وقد حرص السّعديون على مواصلة الجهاد البحري ضد القوى الصليبية المتحالفة ضد المسلمين وكان استرداد المدن المغربية من تلك القوى المعادية هي بداية حركة الجهاد التي رحب بها العثمانيون فقد اتبع أحمد المنصور الذي كان يحكم المغرب في الفترة من 1578 و 1603 سياسه الجهاد الاسلامي لمواجهة.

تقدم البرتغاليين على الشواطئ الأفريقية وذلك بنشر سلام بين الأفارقة ومد نفوذ دولته من حوض نهر السنغال حتى نهر النيجر وقد نشأت في تلك الجهات حكومة تحتفظ بالولاء الاسمي للسلطان المغرب استمرت حوالي قرنين من الزمان.

وقد حاول احمد المنصور في حركة الجهاد البحري ضد القوى الأوروبية المعادية ان يضرب القوى الأوروبية ببعضها فحاول التحالف مع انجلترا وهولندا ضد اسبانيا ولكنه لم ينجح في مسعاه وان كان قد نجح في عقد معاهدات معها لتنظيم حركة الملاحة والتجارة [2]

[1] عبد المنعم براهيم الجميعي نفس المرجع السابق ص 62

[2] نفس المرجع السابق ص 63

واستمر الجهاد الاسلامي في المغرب الاقصى في عهد اسرة الاشراف العلويين الذين بدا عام 1666 ضد القواعد الإسبانية والبرتغالية في الاراضي المغربية ، فتم استرداد مدن المهدية والعراش و اصيلة اواخر القرن السابع عشر و استرداد ميناء طنجة ومدينة مفرغات من يد البرتغاليين وبالنسبة للدول الأوروبية التي لم تجاهر المسلمين العداء فقد حكم المغرب معهم معاهدات تجارية فقد تعاهد المولى محمد بن عبد الله الذي استمر حكمه للمغرب من عام 1757 الى 1793 مع دول شمال اوروبا ومع الولايات المتحدة الامريكية عام 1786 كما توسط لدى حكام تونس وطرابلس الغرب حتى تمنع تمتنع سفنها عن مواجهه سفن الولايات المتحدة واستمرت الامور على ذلك حتى حدث الغزو الفرنسي للجزائر في عام 1830 وبرز التفوق البحري الفرنسي في الحوض الغربي للبحر المتوسط مما دفع بأنصار الجهاد البحري الاسلامي في المغرب الى الانزواء.

وانتهى الامر بقيام انجلترا بعقد معاهدة مع الغرب في عام 1856 تضمنت نصوصها الحرص على تامين الملاحة في البحر المتوسط والقضاء على عمليات الجهاد البحري المغربي التي كانت تتركز نشاطها عند السواحل الريف و زاد الامر سوءا بنجاح البحرية الإسبانية في القضاء على السفن المغربية والاستيلاء على مدينه تطوان و منذ ذلك الوقت تزايدت الاطماع الأوروبية في المغرب حتى تم احتلال فرنسا لها في عام 1912 [1]

[1] نفس المرجع نغس الصفحة

المطلب الثاني :

التحالف العثماني الوطاسي:

خلال نصف الأول من القرن السادس عشر حافظ الوطاسيون والعثمانيون عموما على علاقات جيدة حيث دعم الاول الاخير عسكريا خلال غزوهم بينما في الدولة الزيانية لمملكة تلمسان في خدمة السلاطين الانكشاريين فسكان عدد كبير لكن العلاقات سرعان ما تدهورت بسبب الخلاف الوطاسيين واللجوء الذي منحه الوطاسيون لمنظمي الثورات تلمسان المعادية للعثمانيين

فعاد الدعم العثماني للوطاسيين في عام 1545 عندما طلب الاخير الذي خسر الأرض في حربه ضد منافسه الجدد السعديين من الحصول على مساعدة عسكرية الباب العالي وهكذا فان الامير الوطاسي سمح لهم بالبقاء في السلطة.

ابو حسون الوصي علي السلطان الشاب محمد القصري اعترف الخليفة العثماني أمير المؤمنين مقابل الحصول على المساعدة العسكرية المطلوبة.

ومع ذلك لم يتدخل العثمانيون عسكريا في أربعينيات القرن بسبب الاضطرابات التي ميزت نهاية العصر الزياني في 15 لكن منح اللجوء لأبو حسون عام 1549 بعد ان تلمسان غاز السعديون مدينة فاس.

فشل الاتفاق التركي السعدي:

أدى صعود الأشراف السعديين الى السلطة في عام 1549 الى تخوف العثمانيين من فقدان دعم المدنيين في غرب وهران حيث تم ابرام اتفاق بين الطرفين بنص ينص على السابقة يستعيد بموجبها مملكة تلمسان تقسيم الاراضي ما عدا مدينة وهران ستبقى تحت الحكم تلمسان المغاربة ومع ذلك ظلت الاتفاقية حبر على ورق خاصة العثماني حلفاء الوطاسيين امارة ديدو بسبب مؤامرات الاتراك مع الامراء خوفا من التهديد التركي شن السلطان السعديين محمد هجوما على الوجود التركي في 1550 فورا في عام 9 يونيو غرب الجزائر استولى فيه المغاربة على تلمسان لكنهم فشلوا في دخول مستغانم ثم تراجعوا بعد غارات 1550 خسر حلفاء الاسبان في وهران عليهم بنو رشيد امير العثمانيين وضم الاخير السعديون تلمسان في يناير السابقة الى ممتلكاتهم تحت مسمى الزيانيين مملكة وادي الشلف بينما استمر النزاع المسلح في الجزائر.

ازدادت التوترات بين السعديين والعثمانيين عام 1552 عندما حاول السلطان التقرب ديبلوماسيا من سليمان القانوني في حدوث النزاع حسن باشا السعديين حيث القى اللائمة على صالح واستبداله ابالة الجزائر وقام بإزالته من الحكم وارسل وفدا للسعديين يطلب مبايعة امير المؤمنين بينما جاء رد محمد الشيخ بما يلي:

"سلم على امير القوارب سلطانك وقل له ان سلطان ويكون قتاله معك مصر لا بد ان ينازعك على محمل الغرب والسلام مصر عليه ان شاء الله"

أدى هذا بالعثمانيين لشن هجوم على عاصمة السعديين فاس في اكتوبر مما أدى صالح رئيس 1553 بقيادة باشا الجزائر أبو حسون الوطاسي على الاستيلاء على المدينة وإعادة الحكم بعد أربع أشهر اعترف الأخير بالسلطة الاسمية للعثمانيين من خلال إصدار الخطبة باسم السلطان العثماني ومبايعته أميرا للمؤمنين في سبتمبر 1554 نجح محمد الشيخ السعدي في استعادة فاس وطرد ابو حسون و العثمانيين قبل إبرام تحالف ضد الاخير مع الاسبان في وهران .

إغتيال محمد الشيخ :

بعد رفضه مرة أخرى مبايعة السلطان العثماني أميرا للمؤمنين في يونيو دبر العثمانيون مؤامرة اغتيال سنه 1557 في اكتوبر على يد أفراد أتراك من حراسه الذين دخلوا خدمته مدعيين انهم من الفارين من الجيش.

حيث انتهزوا فرصة خروجه في رحلة صيد رفقة العثماني عدد قليل من حراسه فاستفردوا به وقطعوا رأسه غدرا و نقلوا بها سليمان القانوني رأسه الى القسطنطينية حيث احتفل اعتبره انتصار .

بعد وفاته استعاد العثمانيون مدينه تلمسان التي كانت في أيدي المغاربة منذ عام 1556 حيث سحب هذا الأخير.

قبل مواصلة هجومهم على الأراضي المغربية حيث أن قتال شمال فاس سيواجهون الجيش السعدي بقياده عبد الله الغالب عام 1558 انتهت بانتصار السعديين معركة وادي اللبن.

خلافه عبد الله الغالب:

أعطت وفاة السلطان عبد الله غالب الذي توفي عام 1574 فرصة للأتراك للتدخل مرة أخرى في المغرب من خلال دعم اثنين من المطالبين بالعرش هما أحمد المنصور عبد الملك ومحمد المتوكل ضد السلطان.[1]

[1] - الشناوي : الدولة العثمانية ، ج2 ص933- 935

الإطاحة بمحمد المتوكل:

عام 1576 دعم العثمانيون عبد الملك سعدي فعرضوا عليه اللجوء ورحبوا به منذ عام 1574 لاستعادة فاس و اسقاط ابن اخيه السلطان المتوكل, حيث وضع تحت تصرفه فيلق استكشافي من عشره الاف رجل معظمهم من الانكشاريين, واخذ مدينة فاس الركن فهزم بهم جيش المتوكل ثم مدن المملكة الاخرى بعد ذلك.

بعد وصول عبد المالك الى السلطة, احتفظ بالحامية العسكرية العثمانية داخل جيشه بينما اعاد تنظيم جيشه وفقا للنموذج العثماني, وبعد أن استنتب له الأمر كانت الحامية التركية قد ذهبت.

حافظ عبد الملك على علاقات جيدة مع الباب العالي في البداية, احتفظ باستقلال المغرب على الامبراطورية العثمانية وحافظ على العلاقات الدبلوماسية مع الاسبان لضمان ذلك.

شكل التقارب العثماني المغربي تهديدا للبرتغال, وخاصه ممتلكاتها على السواحل المغربية و سبتة طنجة مازافان.

دعم السلطان المخلوع سبستيان الاول فقرر الملك البرتغالي بعد توجيه هذا الاخير بطلب المساعدة العسكرية يهدف المتوكل استعادة عرشه.

معركه وادي المخازن:

في صيف عام 1578 بدأت الحملة البرتغالية بغزو شمال المغرب تعهدت بالتقدم المتوكل يرافقها سيبستيان نحو عاصمة فاس, في الرابع اغسطس واجهت قوات عبد المالك المعززة بمدفعية حلفائه العثمانيين البرتغاليين رفقة المتوكل, انتهت بهزيمة الكاملة للقوات البرتغالية وكذلك وفاة ثلاثة ملوك هم سبيستيان وعبد الملك والمتوكل.

احمد المنصور الذهبي:

شهد المنصور وهو امير اغتيال ابيه محمد الشيخ المهدي من قبل العثمانيين ومحاولاتهم المتكررة التدخل في الشؤون المغربية ودهاء ابيه ومستشاره في استغلال السياقات الدولية المواتية للحفاظ على استقلالية البلاد, كما شهد في حصول على عرش البلاد فكان عبد الملك مساعدتهم لأخيه على دراية بالسياسة العثمانية اتجاه المغرب, كانت الاتصالات الأولى بين العثمانيين والمنصور جيدة, فبعث مراد الثالث رسالة اتبعها بإرسال وفد إلى المنصور بالحاكم ال " عديم القيمة" في سبتمبر 1579 لمطالبة بالتنازل عن بعض الموانئ مراكش مرفوقا بهذا بالاليف الا بالعرائش المغربية.

سعى العثمانيون لإسقاط حكم المنصور بال خادم وتوليه ابن اخيه اسماعيل اضافة الي تغيير نهج سياسة الدولة العثمانية اتجاه المنصور يرجعها البعض لاندلاع الحرب العثمانية الصفوية و الخوف من محمد باشا صقلي وفقدان الدولة لاستقرارها بعد اغتيال الصدر في رسالة احمد مراد الثالث ابتداء من سنه 1580 و فتح جهة حرب جديدة مؤرخة في شهر

يوليو من نفس السنة دعا واقترح المنصور اقامة تحالف بهدف استرجاع الاندلس لذلك 300 سفينه من مقاتلي النخبة.

بلغت التوترات ذروتها 1581 حين أمر السلطان بقيادة اسطول من علج علي باشا مراد الثالث العثماني 60 سفينة وثمانية الاف رجل لفرض الهدوء بالجزائر واضرار مصالح المنصور فلما تحسن السلطان احمد المنصور بفاس واحاط نفسه بالجيش واعد العدة وحصن ثغور الموانئ وسلم قيادة ميناء العرائش لأقرب معاونيه ابراهيم ساهمت الدبلوماسية المغربية في انهاء النزاع السفياني من خلال النجاح في الوصول الى الاتفاق على هدنة بين علج علي القوتين الاسلاميتين رغم الضغوط التي مارسها على الوقود الوفود المغربية التي كانت في طريقها لإسطنبول.

ساهمت في نجاح الهدنة عوامل منها الوباء الفتاك وحالة الاستقرار السياسي الذي يشاهد شهدتها إيالة الجزائر و ثورة علي علج اوكل مهمة إخمادها الحرمين الشريفين بلاد العربية اصبحت هناك مراسلات الإدارة العثمانية بالإمام والسلطان والخليفة.

عادت التجاذبات مرة اخرى بين القطرين في نفس السنه بعد ان غزو قصور الصحراء جنوب الإيالة.

لم يكن في استطاعة تجارة القوافل وسيطرته على الجزائر في الدولة العثمانية فقامت بالرد على تحركات المنصور والمواجهات من البلقان وبلاد فارس والمحيط الهندي والحجاز, فاسند المهمة لممثله مراد الثالث والي الجزائر فسيار هذا الاخير حمله عسكريه ضد التواجد المغربي صلات بين مناطق فياكيك الإيالة فتوجه نحو جنوب ذلك اقامه النزاع لكن بائت بالفشل.

ففي عهد المنصور اقام تحصينات جديده بقصور الواحات الرئيسية وتحصينها دائمه كما ربط علاقات عبر إعفاء من الضرائب.

شوفي اواخر عهد المنصور هاجم الوالي العثماني غرائب على المناطق فكيكه واحه تلمسان لتذكيره ان باش الجزائر المحيطة بها.

المطلب الثالث:

المراحل التي مرت بها العلاقات العثمانية المغربية:

مرت العلاقات المغربية العثمانية في مطلع العصور الحديثة بمراحل ثلاث. استغرقت الأولى أغلب القرن السادس عشر ميلادي وهي المرحلة التي حاول العثمانيون اثناءها سيطرتهم على المغرب كغيره من الدول العربية الأخرى ولو أنهم أخفقوا في ذلك.

أما المرحلة الثانية فهي التي فقدت فيها الدولة العثمانية قوة اندفاعها وصارت لا تشكل خطرا كبيرا على المغرب ،و كان ذلك خلال القرن السابع عشر ميلادي.

وقد حدث خلالها نزاعات بين الطرفين على الحدود الجزائرية المغربية, من ذلك أن المولى اسماعيل قام بعده محاولات عسكرية, واذا كان هذا الأخير قد مني بالفشل من ناحية فإنه حمل السلطان العثماني الى مكاتبته. طالبا منه الوقوف عند حد أسلافه.

أما المرحلة الثالثة فقد اتضحت منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادي, حيث أخذت أسباب الضعف تلم بالدولة العثمانية وصارت منذئذ تعرف بالمسألة الشرقية أو الرجل المريض في ما بعد, و خلال هذه المرحلة عرفت العلاقات المغربية العثمانية شكل من اشكال التعاطف الاسلامي ، وقد شكل عهد السلطان المغربي محمد بن عبد الله النموذج الامثل لهذه المرحلة [1] .

وإذا تسلط الضوء على جانب من هذه المرحلة نحاول معرفة أسباب التقارب المغربي العثماني وعلاقه ذلك بسياسة الاصلاح في المغرب محمد بن عبد الله؟

تشير معظم الكتابات المغربية في هذا الموضوع الى أن المغرب اختار سياسة التقارب مع الدولة العثمانية بعد فترة الركود الطويلة بدافع الروح الإسلامية التي كان يتمتع بها السلطان محمد بن عبد الله ولا سيما ان الدولة العثمانية رمز الخلافة الإسلامية كانت تعاني من الضعف والانحطاط.

كما كانت تبحث عن السند المادي والمعنوي الذي لم تجده إلا في المغرب الاقصى , وقد سارع هذا الاخير الى مد يد العون للعثمانيين دون قيد أو شرط فساندهم ماديا ومعنويا وتبادل معهم الوفود واستفاد من الخبراء الاتراك في الشؤون الهندسية والعسكرية وقامت بين الجانبين سفارات عديدة [2]

[1] - موسى شرف : علاقات المغرب بالدولة العثمانية و إيالاتها في بلاد المغرب العربي في النصف الثاني من القرن 18 ، المركز الجامعي البيض ص 414.

[2] - موسى شرف : نفس المرجع السابق ، ص 414 .

ولقد بذل المغرب كلما لديه من جهود للحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية بدفاعه المستمر عن الدولة العثمانية, و لعل السفارات المغربية الى النمسا وروسيا كانت من باب التخفيف عن العثمانيين:" كان المغرب يجعل نصب عينيه مصالح الاسلام والمسلمين". على حد قول السفير المغربي الى النمسا" الطاهر الفينيتش" ولقد ذهب الطاهر فينيتش في الإشارة لاهتمام المغرب بمصالح الأمة الإسلامية الى أبعد من ذلك, عندما علق على الحلف الروسي النمساوي قائلا: لماذا لا نتفق نحن المسلمين في الشرق والغرب ولماذا لا نضع ثوراتنا واسطولنا تحت قيادة واحدة [1] .

كانت العلاقات بين المغرب والنمسا وروسيا تسير سيرا طبيعيا من تبادل الرسائل والهدايا بعد أن انتهج سلطان المغرب سياسة الانفتاح على أوروبا لولا ما طرأ على الصعيد الدولي من نشوب الحرب بين الدولة العثمانية والنمسا وروسيا سنه(1203 هـ - 1788 م) عندها وقف السلطان الى جانب العثمانيين وأصدر بيانا لكافة القناصل الأوروبية المقيمة بمملكته, جمله ما جاء فيه: ".... كل ما هو صلح مع السلطان العثماني فهو صلح معنا وكل ما هو كيد فهو كيد معنا" [2] .

ونحن نستعرض العلاقات المغربية العثمانية في هذه الفترة وفق ما أشرنا إليه هناك كتابات أخرى تشير الى أن هذه العلاقات يكتنفها الغموض، فظاهرها التقارب و لكن باطنها يكتنفه الشك والحذر بين الجانبين ومع ذلك لم يعلن صراحة أي طرف منها نواياه الحقيقية **!**

وقد ظل العثمانيون يترقبون بحذر شديد تطلعات سلاطين المغرب للخلافة ولهذا واجهوا محاولاتهم مواجهه علنية وصريحة.

و الهدايا التي كان يرسلها اليهم سلطان محمد بن عبد الله لم تكن من باب الاعتراف بالتبعية للعثمانيين ولكن بهدف الحصول على بعض البحارة للتدريب وكذلك بعض الآلات والمعدات الحربية وخاصة حين أمده العثمانيون ببعض احتياجاته سنة 1775 هـ - 1761 م , وما اتصالاته بأشراف المشرق ومصاهرته لشريف مكة إلا خطوات في هذا الاتجاه فقد بحث من جهة عن الشرعية الدينية ومن جهة أخرى عمل على تقوية الصلة برموز الشرف الديني, ولقد وصل السلطان المغربي الى حد الدعاء للخليفة العثماني عبد الحميد الاول بالنصر والتأييد وأمر خطباء مساجد المغرب بأن يحذو حذوه حتى اعتبر ذلك آذانا بأن الدولة واحدة وأن التضامن الاسلامي حقيقة لا تقبل الشك. ولما سأل العثمانيون سلطان المغرب عن دواعي تقربه منهم جاء الرد:" ان سلطان المغرب تصرف على نحو ما تفرضه مصالح الاسلام" [3] .

كانت سياسة السلطان محمد بن عبد الله اتجاه العثمانيون يكتنفها الغموض والتعقيد, ولم تصل الى مرحلة الوضوح والفهم ، فأحيانا يفهم أنه يحاول التفاهم معهم واقامة علاقات حسنة وأحيانا أخرى يفهم أنه يقيم معهم علاقات أسوة بالدولة العثمانية[4] .

---

[1] - نفسه ص 414

[2] - نفسه ص 414

[3] - نفس المرجع السابق ص 415

[4] - نفسه ص 415 .

ومما يدعم صحة هذا الرأي ما كشفه تقرير سري " اسماعيل افندي" مبعوث السلطان العثماني عبد الحميد الاول الى المغرب بعد رجوعه منه الى اسطنبول بتاريخ 15 ربيع الاول 1201 الموافق ل 5 جانفي 1787, جاء فيه: " .... وفي أثناء إقامتي بالمغرب ورد خمسة من عربان الجزائر(يقصد شيوخ بعض القبائل الجزائرية) يشتكون ما انتابهم من ظلم من الوجاقات(كذا) فأشار عليهم" يعني سلطان المغرب" بالذهاب الى الدولة العلية بإسطنبول, فأجابوه بأن اسطنبول على مسافه سته أشهر ، فكيف نستطيع الذهاب ؟ وهنا بعث بهم الى الأسمع كلامهم, فلما استصدقهم

(يقول اسماعيل افندي) من الظلم يندى الجبين واعترضني منها عارض والحق يقول اسماعيل افندي: ان ظلم العثمانيين لما تحت أيديهم من أناس وممالك (كذا) شيء يمحقه العقل و يرفضه الشرع.....و أن سكان الجزائر لا يرضون بما يقدم به حكامهم (العثمانيون) وانهم يراسلون المولى محمد و يبعثون إليه خفيه ويستغيثون به..... ثم يضيف اسماعيل افندي..... إن أحد من الحكام لا يتوفر على ما يملكه المولى محمد من جند وخزائن ، وله من القوة و الاقتدار ما ليس لغيره . ولقد استخبرت وعلمت من بعض الملاحظين ان باي تونس وباشا طرابلس واتباعهما من قبائل وعشائر عربان تلك البلاد يضمرون الحب خفية للمولى محمد نكاية في عسكر الجزائر(كذا) وأن لهم معه مكاتبات ومراسلات ولهذا فإن لم تسع للدولة العلية لدفع ظلمات هؤلاء المغاربة من المولى محمد فإنه و العياد بالله اذا استيأس الناس أخشى أن يزحف مولى محمد على الجزائر وينهي الأمر [1] .

وتجدر الملاحظة كذلك أن السلطان محمد بن عبد الله ظل يتملص من السماح للعثمانيين بإقامة سفارة أو قنصلية بالمغرب. معتذرا لهم بأن الأخوة بين البلدين ليست بحاجة الى من يدعمها من وجود قنصلية تركية بالمغرب.

ولبعض المؤرخين في هذا رأي خاص حسب النازي يعتبرون أن التقرير يكشف عن كثير من الجوانب المبالغ فيها ،كما يصور الخوف الذي يهيمن على العثمانيين, ومن المركز المرموق الذي كان السلطان المغربي ينعم به, ليس بالمغرب فقط ولكن عبر أقطار الأمة الإسلامية من الجزائر وتونس وطرابلس إلى مصر و الحجاز وبلاد اليمن [2] .

إن فهم حقيقة طبيعة العلاقة بين المغرب والدول العثمانية وعلاقة ذلك كله بسياسة الاصلاح التي انتهجها السلطان محمد بن عبد الله لا تتضح إلا من خلال فهم علاقة المغرب مع عدد من الإيالات العثمانية [3]

[1] - نفس المرجع السابق ص 415 .
[2] - نفسه ص 415
[3] - نفسه ص 415

الخاتمة:

بعد دراستنا لموضوع السلطة العثمانية و المغرب العربي خرجنا بالنتائج التالية :

1- استفادة منطقة طرابلس الغرب من الحكم العثماني خلال مواجهتها الخطر الاسباني المتحالف مع فرسان القديس يوحنا في مالطا و استفادت من تأثير الغزو الاستعماري الاوربي لها عندما كانت الدولة العثمانية قوية .

2- استفادة طرابلس من بقاء الفكرة القومية و مقوماتها في النفوس خاصة ان العثمانيين أبقوا على اوضاع البلاد كما هي ولم يقوموا بتركها .

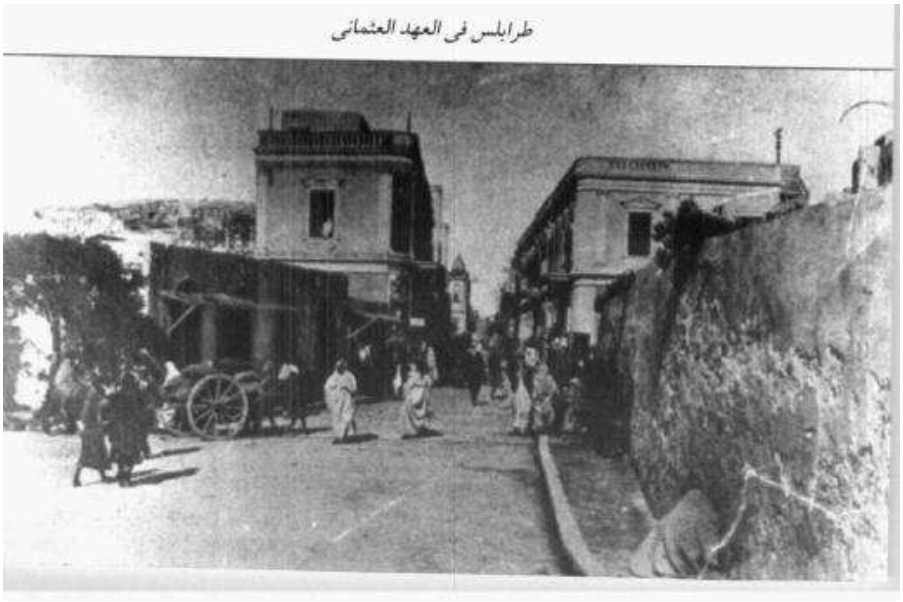
3- تفاقم الوضع في تونس مما جعل رد العثمانيين الذين خاضوا العديد من المعارك مع الاسبان و التي انتهت بضم تونس من طرف سنان باشا و طرد الاسبان نهائيا و اصبحت بذلك ولاية عثمانية .

4- تحول تنظيمات سنان باشا الى مقاطعة عسكرية تعاقب على حكمها البايلربايات و الدايات .

5- رغم نجاح العثمانيين في الاستيلاء على توتس و ليبيا و بالرغم من موقع المغرب المهم عسكريا بالنسبة للعثمانيين خاصة أن سواحلها تطل على البحر المتوسط و المحيط الأطلنطي ، كما أنها تقترب من اسبانيا من ناحية بوغار فقد ظل هذا الاقليم بمنآى عن السيطرة العثمانية التي حاولت ادماجه بقية أقاليمه.

6- عرفت بلاد المغرب الأقصى في القرن 16 و 17 م العديد من المعارك منها معركة وادي المخازن في 30 جمادى الأولى 986 هـ أغسطس 1578 م.

ملحق رقم 01


طرابلس في العهد العثماني

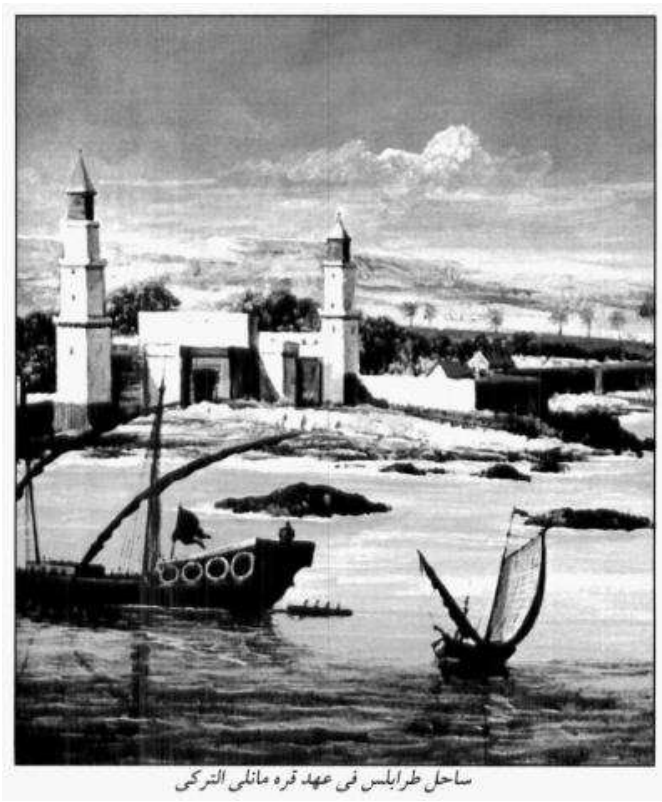
ملحق رقم 02[1]

[1] - عبد المنعم ابراهيم الجميعي : الدولة العثمانية و المغرب العربي ص 33



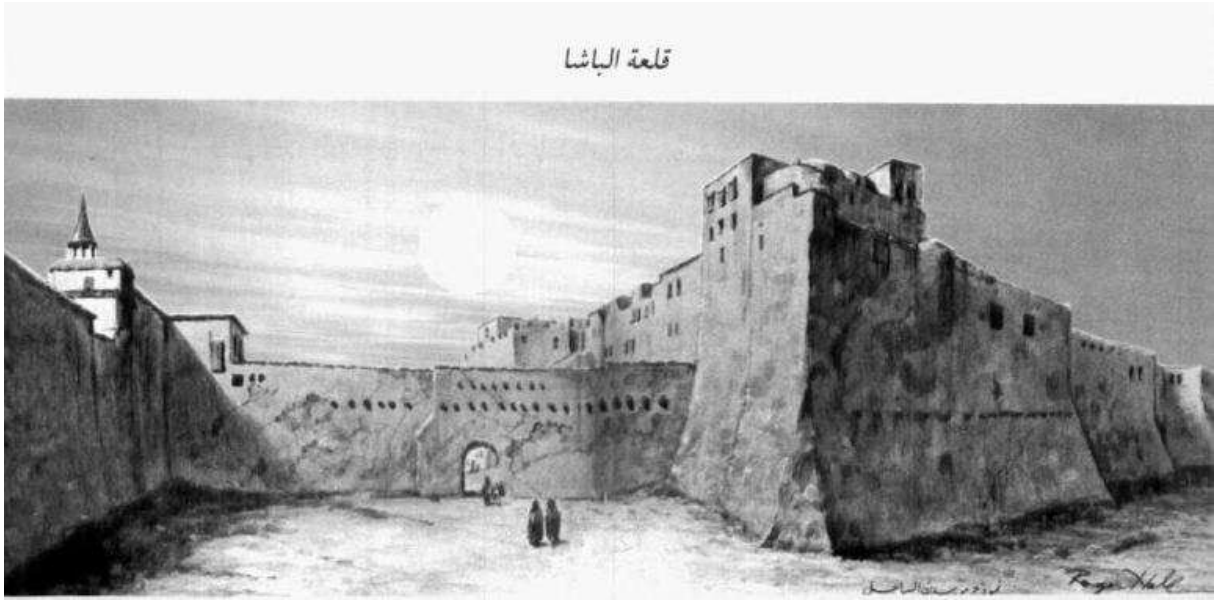
خير الدين بربروسا

ملحق رقم 03



ساحل طرابلس في عهد قره مانلي التركي

ملحق رقم 04[1]



ملحق رقم
05[2]

[1] - عبد المنعم ابراهيم الجميعي : المرجع نفسه ص 31
[2] - عبد المنعم ابراهيم الجميعي : المرجع نفسه ص 36

ملاحـــــــــــــق



السفينة فيلادلفيا الأمريكية التى أسرها الليبيون

قائمه المصادر والمراجع

1 - أبو علي عبد الفتاح حسن: الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير, كلية العلوم الاجتماعية, قسم التاريخ , جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.
2 - النمساوي: الدولة العثمانية . الجزء 2.
3- عبد المنعم ابراهيم الجميعي : الدولة العثمانية والمغرب العربي جامعة القاهرة , الغيوم, موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية ,, دار الفكر العربي.
4- رافق عبد الكريم: العرب والعثمانيون, 1516- 1916 , طبعة 1 , كليه الآداب, جامعة دمشق.
5 - شرف موسى: علاقات المغرب بالدولة العثمانية وإيالاتها في بلاد المغرب العربي في نصف الثاني القرن 18 , مركز الجامعي, البيض .
6- عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها, الجزء الرابع, مكتبه الانجلو المصرية , 165 شارع محمد فريد القاهرة.
7- عزيز سامح التر : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية , ترجمه محمود علي عامر, طبعه واحد, دار النهضة العربية للطباعة والنشر, بيروت 1989.
8- جميل بيضون : تاريخ العرب الحديث دون طبعة, الأهلية للنشر والتوزيع, عمان 1989.
9- فريد محمد: تاريخ الدولة العثمانية العلية.
10- شوقي عطا الله الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث(ليبيا تونس الجزائر المغرب) الطبعة واحد, 1977, مكتبه الانجلو المصرية.
11 - احمد بن ابي الضياف: تحالف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الامان(تونس 1963- 1964) الجزء الرابع.
12- الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية في تونس 1956.
13- الحبيب الجنابي : الحركة الإصلاحية في تونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر(حوليات الجامعة التونسية) 1969.
14- محمد بيرم التونسي : صفوه الاعتبار بالمستودع الامصار والاقطار , القاهرة 189.
15- نصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب العثمانية (الجزائر تونس طرابلس المغرب الطبعة اثنين, دار البصائر للنشر والتوزيع, الجزائر2013 .
16- نيقولا زياده: تونس في عهد الحماية 1963.
17- عبد الملك خلف التميمي: اضواء على المغرب العربي رؤيه عربيه مشرقيه , تصدير ناصر الدين سعيدوني, البصائر للنشر والتوزيع, الجزائر, وزاره الثقافة.
18- السلامة ب : ثوره علي بن غذاهم 1864, تونس 1927.

19- عبد الجليل التميمي: بحوث ووثائق في التاريخ العربي 1816 - 1871 تونس 1973.
20- جون جيان بان : ثورة 1864 , ثوره علي بن غذاهم, اصول الحماية الفرنسية للبلاد التونسية 1925.
21- وثيقه فرنسيه: وثيقه رقم 353.
22- العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية خلال العهد العثماني 1519- 1830 مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماستر اكاديمي في التاريخ المعاصر, تخصص تاريخ الجزائر الحديث.
23- سمير ابو حمدان: خير الدين التونسي دون طبعة, دار الكتاب العالمي, لبنان 1992.
24- عبد الله مسعود: ملامح الحياة الفكرية والثقافية في ليبيا أواخر الحكم العثماني حتى الاحتلال الايطالي. سنة 1911, المجلة الجامعة دون طابعه, مجلد ثلاثة, العدد 15, 2013.

فهرس

الموضوعات

الموضوع : علاقة الدولة العثمانية بالزعامات المحلية في بلاد المغرب العربي (تونس ، ليبيا ، المغرب الأقصى) خلال القرنين 16 و 17 م.

مقدمة		9 - 7
المدخل التمهيدي:	الاوضاع السياسية في دول المغرب:	
المطلب الأول	الاوضاع السياسية في تونس	15 - 10
المطلب الثاني	الاوضاع السياسية في ليبيا	17 - 16
المطلب الثالث	الاوضاع السياسية في المغرب الاقصى	18
المبحث الأول	: علاقة الدولة العثمانية بليبيا	
المطلب الأول	ليبيا خلال الحكم العثماني و أهم مراحلها.	37 - 20
المطلب الثاني	نظام الحكم العثماني في ليبيا	38
المطلب الثالث	مظاهر الحياة الاقتصادية و العلمية والثقافية في ليبيا خلال الحكم العثماني	42 - 39
المبحث الثاني	علاقة الدولة العثمانية بتونس	
المطلب الأول	الدخول العثماني الى تونس	45
المطلب الثاني	العثمانيون يضمون تونس	48 - 46
المطلب الثالث	تونس ولاية عثمانية	62 - 49
المبحث الثالث	علاقة الدولة العثمانية بالمغرب الأقصى	
المطلب الأول	العثمانيون و المغرب الأقصى	66 - 64
المطلب الثاني	: التحالفات العثمانية الوطاسية	70 - 67
المطلب الثالث	المراحل التي مرت بها العلاقات العثمانية المغربية	73 - 71